بانة العابد

عزيزي العالم

فتاة سورية تروي الحرب وتُطالب بالسلام

«قصّةُ حبّ وشجاعة وسط واقع من الوحشيّة والذعر،
إنها شهادة طفلة عانت الأمرّين في ظروف لا يتصوّرها عقل.»
—ج.ك. رولينغ

نوفل

بانة العابد

عزيزي العالم

فتاة سورية تروي الحرب وتُطالب بالسلام

ترجمة ناتالي الخوري

نوفل

حقوق النشر
جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام **2019** عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **سابين طاوقجيان**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-272-1
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-273-8

Original title:
Dear World

Copyright © 2017 by Bana Alabed.

The name of some individuals in this book have been changed.

Photo of Aleppo citadel, from Flickr by Johan Siegers CC BY 2.
All other interior photos courtesy of the Alabed family.

First Simon & Schuster hardcover edition October 2017.

أهدي كتابي هذا إلى كلّ طفلٍ عانى ويعاني من الحرب. «لستَ وحدكَ».

حيثُ الأملُ توجد حياةٌ.

ومنه نستمدّ الشجاعةَ والقوّةَ لننهضَ من جديدٍ.

آن فرانك

كلمة المؤلِّفة

أنا سعيدةٌ جدًّا لأنّه تسنّى لي أن أؤلّفَ كتابًا، فأنا أحبُّ الكُتبَ والقراءةَ. أنا كاتبةٌ ماهرةٌ لأنّني أتدرّبُ كثيرًا، ورغم ذلك، احتجتُ إلى بعضِ المساعدةِ. وقد تولّت أمّي وناشرتي – التي أصدرَتْ هذا الكتاب – مساعدتي لأرويَ قصّتي بالإنكليزيّة. أكتبُ ذكرياتي كلَّها في الحربِ: اللحظاتِ السعيدة، واللحظاتِ المُرعِبَة، وكلّ ما علِق في ذاكرتي. حاولتُ ألّا أنسى شيئًا وأن أرويَ الوقائع كما هي. آمل أن يعجبَكم كتابي. وأتمنّى أن يحفّزَكم على مساعدةِ مَن هم في حاجةٍ إلى مساعدةٍ.

كانَ يومًا رائعًا من أيّامِ يونيو عندما أبصرتِ النورَ يا بانة. دافئًا، مُشرقًا، لا تعكّر صفوَه غيمةٌ. نظرتُ من نافذةِ غرفتي في المستشفى، ووضعتُ يديَّ على بطني المنتفخ، أتحسّسكِ وأنتِ تركلين وتتحرّكين كأنّك ما عدتِ تُطيقين الانتظارَ أكثرَ لتولَدي. رحتُ أفكّرُ: ما من يوم مثاليّ أكثر من هذا اليوم لتبدأ فيه حياةٌ جديدةٌ. خلالَ لحظةٍ، نسيتُ آلامَ المخاضِ وخوفي من المستقبلِ المجهولِ – وعوضًا عن ذلك، فكّرت في أنّني سأجلسُ قريبًا في هذا السرير وأحتضنُكِ بشغفٍ بين ذراعيّ، وأنّك ستبصرين أشعّةَ الشمس الدافئةَ والمشرقةَ تلك أوّل مرّة، وتشعرين بدفئِها يداعبُ وجهَكِ، في اللحظات الأولى الغالية من حياتِك الجميلةِ.

انتظرناك وانتظرناك طويلًا. ليس والدكِ وأنا فحسب، بل العائلة بأسرها أيضًا، خصوصًا جدّيكِ وجدّتيكِ الذين كانوا يتوقون إلى استقبالِ حفيدتِهم الأولى. حين رتّب والدي زواجي بأبيكِ، اتّفقت عائلتانا على إرجاء حفلِ الزفافِ حتّى أنهي دراستي. وبعد ذلك، أردنا أن نمضي وقتًا كزوجين أوّلًا، لكي يتعرّف واحدُنا إلى الآخر قبلَ أن نُنجبَ أطفالًا. لكنْ، بما أنّ غسّان وأنا كنّا الولدين الأكبرين في عائلتينا، بالتالي أوّل مَن يتزوّج، كان الجميعُ في ترقّبٍ شديد وعلى استعداد تامّ لاستضافةِ مولودِ العائلةِ الأوّل، ولننجب نحن أوّل الأطفالِ من الجيلِ الجديد. لذا، ومنذ اليوم الأوّل في زواجِنا، وفي كلّ مناسبة عشاء أو زيارة عائليّة، كان أحدهم – خصوصًا جدّتكِ العابد – تكرّر من دونِ كللٍ أنّ «الأوانَ قد آن لإنجابِ طفلٍ».

ما لم يكن معلومًا لهم هو أنّني كنتُ أواجه صعوباتٍ في الحمل، وقد وجب عليّ استشارة أطبّاءَ كثرٍ، أكثر من سنةٍ. فكلّما مرّ شهرٌ من دونِ حصول الحملِ المنشود، خشيتُ أكثر فأكثر ألّا يحصلَ على الإطلاقِ، وألّا أصبحَ أمًّا مُطلقًا في حياتي. ذات يوم، وفي خضمّ دوّامةِ الآمال والخيباتِ هذه، كنّا – أبوك وأنا – نتمشّى حول قلعةِ حلب، أحد أماكني المفضّلة الذي لطالما شعرتُ بالأمان والسلام فيه بينَ الجدرانِ القديمةِ تلك. حلب هي إحدى أقدم مدن العالم المأهولة على مرّ الزمان يا بانة. هل تعرفين ذلك؟ كانَ يُريحني التفكيرُ بذلك، فأشعرُ بأنّني على تواصل مع تاريخِنا وأجدادِنا الذين وطأت أقدامُهم هذه الأرض عينُها على امتدادِ آلافِ السنين.

لطالما كانَ المكانُ يعجّ بالعائلاتِ والأزواجِ، ولم يكن ذلك اليوم ليختلفَ عن سواه، فقد كان متنزّهون كثرٌ يستمتعون بأوّل أيّام الربيع. هكذا كنّا نمضي الوقتَ قبل اندلاعِ الحرب – أيّام

عاديّة كثيرة مرّت على النحو الآتي: والدك يذهبُ إلى العمل، وأنا أزورُ المدينةَ مع جدّيكِ وأبتاعُ حاجاتِ العشاءِ، وأساعدُ جدّتك العابدَ في الطهوِ، ومن ثمّ نذهب في نزهةٍ سيرًا على الأقدامِ بعدَ العشاء.

من المؤلم أن نفكّر في الأمر اليوم. كنّا قد افترضنا أنّه من البدهيّ أن تبقى الأوضاعُ دائمًا على هذه الحال. لم يكن في إمكانِنا أن نعرف، أو حتّى أن نفهمَ، ما قد يخبّئه المستقبل. ما كنّا لنتصوَّرَ يومًا أنّ هذا المكانَ حيثُ نتمشّى ونتنزّه، والذي بقي شامخًا على مرّ القرونِ، سيستحيلُ قريبًا منَ الركام والأنقاض. كلّ هذا كان سيحدث في المستقبلِ؛ أمّا في ذلك اليوم تحديدًا، فكنّا سعداء.

تعرفين أنّ والدَكِ هادئٌ في غالبيّة الأحيان، إلّا أنّه سرعانَ ما يتحمّسُ عندما يتحدّث عنِ المستقبل. كان قد ابتاع مهدَ طفل حديثًا. فكّرتُ في أنّه قد يكون نذيرَ شؤم بما أنّني لم أحمل بعدُ. لكنّ أباكِ كان دائمَ التفاؤل. هكذا يتصرّفُ كأنّما المستقبل وأحلامه ومشاريعه كلّها مضمونة. وتلك هي ميزتُه الأحبّ إلى قلبي. في أوّل أيّام زواجنا، كنّا نمضي ساعات وساعات نتحدّث عن الحياة التي نتمنّاها معًا، تمامًا كما في ذلك اليومِ ونحن نتمشّى. أمامنا، فتاةٌ صغيرة لفتتنا. كانت في الرابعة تقريبًا. بدت مذهلةً بشعرِها الطويل الكثيف وعينيها الرماديّتين المشرقتين. لم نستطعْ إشاحةَ نظرينا عنها فيما راحت تركضُ وتضحك – غمرت قلبي لهفةٌ كبيرة كدت أرزح تحت وطأتِها. عندذاك، التفت والدكِ صوبي وقال إنّها الطفلة التي تخيّلها لنا: ابنة صغيرةٌ بشعرٍ طويل مفعمة بالنشاط والفرح. طفلة صغيرة تسحر المارّة. في تلك اللحظة، استكانَ قلبي. عرفتُ أنّني سأحمل؛ وعرفتُ أنّكِ ستولدين. وأنّكِ ستكونين الطفلة التي يعشقها الجميعُ.

لم نستطع أن نحمل معنا إلّا القليلَ القليل من ممتلكاتِنا الثمينة في سوريا – مجموعة صور قديمةٍ للعائلة، ونسخة من دعوة زفافنا، وبضع خصل من شعركِ ومن شعر أخيكِ من أوّل قَصّة، واختبار الحمل الذي أجريته يومَ علمتُ أنّني حامل بكِ. حتّى الآنَ وأنا أنظر إلى ذلك الخطّ الأزرق الباهت، أستعيد الشعورَ الذي انتابني ذلك اليومَ – عندما كذتُ أطيرُ من الفرح والحماسةِ للمستقبل. عندما علمتُ أخيرًا أنّني سأصبح أمًا. أمكِ. عندما كان كلّ شيء يبدو ممكنًا والمستقبل مفتوحًا.

بعد تسعةِ أشهر، لحظة أودعوكِ بين ذراعيّ، سمّرتِ عينيكِ البنّيتين الواسعتين في عينيّ، فشعرتُ بموجةِ حبّ قويّة هزّت كياني. كانَ أوّل ما فعلتُ أن تضرّعتُ إلى الله سبحانه وتعالى لكي تكوني في صحّة جيّدة وتتمتّعي بروحٍ طيّبة. وتلوتُ سورتي المفضّلة في القرآنِ الكريم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وكنت تلوتُ عليكِ هذه السورة بصوتٍ عالٍ طوالَ مدّة حملي. كنت قد

قرأتُ أنّكِ تستطيعين سماعَ صوتي، وقد أردتُكِ أن تعرفي اللهَ وأنتِ في أحشائي. ثمّ انحنيتُ وهمستُ في أذنِكِ الأحلام التي تساورني عن حياتك المقبلة، لتكون تلك الكلمات أوّل ما تسمعين، فتحملين هذه الهمسات في قلبكِ.

اسمكِ، يا بانة، يعني «الشجرة». اخترناه لأنّ إيقاعه قويّ، وقد أردناكِ فتاةً صغيرة قويّة وصلبة. وأنتِ هكذا يا بانة – قويّة وشجاعة. وتتحلّين بحكمةٍ لا يملكها من هم في سنّك. غالبًا ما يصفون ذلك بالروح الحكيمة. لقد جئتِ إلى العالم، متسلّحةً بحكمةٍ لمسها كلّ من حولكِ وجذبَتْ الجميع. ما زلتُ أفتخر بذلك.

حتّى وأنتِ طفلة، كنتِ متيقّظةً جدًا وتراقبين كلّ ما يحدثُ حولَكِ كأنّكِ تعين تمامًا ما يحصل. كنتِ ترفضين النومَ كأنّكِ في قرارة نفسِك لم ترغبي في تفويتِ أيّ لحظة. حينَ كنّا نجتمعُ مع عمّاتِك وأعمامِك جميعًا في منزل جدّتك العابد كنتِ تبدين أنّكِ تتابعين الحديثَ فيما تترصّد عيناك المشقّتان وجوهَ كلّ مَن حولك، وتتناقلكِ الأذرعُ والأحضانُ بحبّ كبير. كان الجميعُ يرغب في اللعب معكِ أو اصطحابكِ في نزهات، خصوصًا عمّكِ نزار. لطالما مازحناه، إذ كان يذهب بك دومًا إلى الحديقة العامّة أو إلى السوق، وذلك لأنّك كنتِ ظريفةً إلى حدّ أنّكِ كنتِ تستوقفين جميع الحسناوات وتثيرين إعجابَهنّ، فيستغلّ هو الفرصة ليتجاذب معهنّ أطرافَ الحديث.

هل تذكرين فرحتَك عندما بدأتِ تتعلّمين القراءة؟ كنتِ في الثالثة فحسب يا ابنتي الذكيّةَ! لكنّ أصابعك الصغيرة الممتلئة كانت تقلّب صفحاتِ كتبكِ المفضّلة فيما تعضّين شفَتكِ من شدّة تركيزكِ وتلفظين كلّ حرف بدقّة ومثابرة.

يُسعدُني كثيرًا فضولُك ولهفتُك للمعرفةِ وللعلمِ، فقد ورثتِ ذلك عنّي. كنتُ أحبُّ المدرسةَ كثيرًا. وإحدى الذكريات الأحبّ إلى قلبي، والتي أحتفظُ بها من طفولتي، كانت لحظةَ قصدتُ المدرسةَ أوّل مرّة، وقد كنتُ أصغر سنًّا منكِ بقليل. كنتُ أتحمّس كثيرًا عندما تأتي والدتي – أي نانا سمر – يوميًا لتصطحبني في جولة سيرًا على الأقدام تدوم عشرين دقيقةً من المدرسة إلى البيت، أطلعها خلالها على كلّ ما تعلّمته – كيف أكتب اسمي وأجمعُ أرقامًا مؤلّفة من عددين، وأعرف كم الساعة. كنتُ أشعر بأنّه لا يمكنني تعلُّم كلّ ما يحلو لي بالسرعة التي أريد. وأنتِ سرُّ أمّكِ.

حين بدأتُ أعلّمُك القراءة، كنتُ أتخيّل كيف سأصطحبكِ أنا إلى المدرسة بعد أعوام قليلة. كم كنتُ أتوق إلى ذلك، وإلى اليوم الذي ستمسكين فيه يدي وتطلعينني على كلّ ما تعلّمتِه من أمورٍ مشوّقة! وكيف سنراجع فروضَكِ المنزليّة معًا كلّ ليلة، وأنتِ جالسةً إلى الطاولة وأنا أحضّر العشاء. لم أتصوّر يومًا أنّكِ لن ترتادي المدرسة لأنّ المدارس كلّها ستصبح مجرّد حُطام. وأنّنا عوضًا عن الجلوسِ إلى الطاولة لإنجازِ الفروضِ، سوف نتقوقع مختبئين تحتها، فيما تنهال

القذائف علينا من كلّ حدب وصوب. أو أنّ طفولتَكِ وأنتِ في الرابعة – تلك الطفولة الآمنة والهانئة والسعيدة التي تتمنّاها كلّ والدة – ستتحوّلُ كابوسًا.

لقد عشتِ ثلاثةَ أعوام رائعة في سوريا يا بانة. آمل ألّا تفقدي أبدًا ذكريات ما قبل الحرب تلك – كيف كنتِ تسبحين مع بابا في حوض السباحة؛ والأغاني التافهة التي لطالما أحببتِ أنتِ وياسمين تأليفها؛ وكيف كنتِ تتوسّلينَ لنأخذَكِ إلى مدينة الملاهي، وعطر الياسمين العابق من حديقتِنا الصغيرة على الشرفة.

آمل أن تكون الديار التي أمضيتِ فيها سنواتِك الأولى قد انطبعت في روحِكِ، وأنّك تفهمين أينما كنتِ أنّ دماءَ سوريا وكرامةَ شعبنا تسريان فيكِ. أريدكِ أن تتشبّثي بذلك الشعور، بأنّك دومًا مُحاطةٌ بالعائلةِ بأسرِها حتى لو كنّا جميعنا في الشتات الآنَ. أريد أن يشكّلَ شعورُ الانتماء جزءًا لا يتجزّأ منكِ وأن يُشعرَكِ بالأمان. عسى أن تبقى ذكرياتُ سنواتِك الأولى السعيدة حيّةً داخلَكِ، فتقوّيكِ وتمدّكِ بالأملِ والشجاعةِ.

احفظي يا بانة في قلبكِ كلّ ما حصل من ذي قبل؛ فقد كانَ جميلًا.

ولدْتُ والابتسامةُ على وجهي

أخبرتني ماما بأنّني ولدْتُ والابتسامةُ على وجهي. قالت لي إنّني كنتُ فرحةً على الدوامِ، حتّى حين كنتُ أرفض النومَ لأنّني لم أشأ تفويتَ أيّ شيء.

في صغري، توفّرت لي الأسبابُ كلّها لأكونَ سعيدةً. كان بابا يأخذُني للسباحةِ في مسبَح «الربيع»، الأمر الأحبّ إلى قلبي. أمّا ثاني أحبّ الأشياء إلى قلبي فكان الذهابَ إلى الأراجيح. وكذلك الأمر، كنتُ أذهب إلى السوق برفقة أعمامي وأخوالي لآكلَ الجيلي (كنت أفضّلُ الأحمرَ منه دائمًا لأنّه النكهة الأطيب). كانت عائلتي ترتاد المطاعمَ باستمرار، ما أتاحَ لي تبادلَ الأحاديثِ معَ أشخاصٍ كثرٍ. أو كنّا نتناولُ العشاءَ جميعنا في بيتِ جدّتي العابد حيثُ أشخاص كُثر، فأنا لديّ عمّاتٌ وأعمام وخالات وأخوالٌ كثرٌ، وأيضًا جدّان وجدّتان وأمّا جدّتَيّ. وكانت عندي كتبٌ كثيرةٌ أهوى قراءتها، خصوصًا كتابي المفضّل «بياض الثلج». فأنا أحبّ حكاياتِ الأميراتِ كلّها.

أمّا السبب الآخرُ المهمّ لسعادتي فهو أخي الصغيرُ. لقد تضرّعتُ إلى الله لتنجبَ ماما طفلةً، فقد كنتُ أرغب في أخت بشدّة. لكنّ أخي كان صغيرًا جدًّا وظريفًا، وشعره كثيفًا وأسود وناعمًا كشعرِ دميةٍ – فلم يكن بهذا السوء أن يكون لي أخٌ. حين كانت ماما حاملًا، كنت قد اخترتُ اسمًا لأختي العتيدة: وردة، فالزهور هي أيضًا مِن

أحبّ الأشياء إلى قلبي. لكن، لا يجوز تسمية صبيّ وردة. عوضًا عن ذلك، أسميناه: ليث (أسد) محمّد. نناديه محمّد.

كنتُ في الثالثة فحسب حين وُلد محمّد، لكنّني اعتنيتُ به. كنتُ أحضر الحفّاظات الصغيرة لاماما عندما تحتاج إلى تبديل حفّاظ أخي، وأشاركه ألعابي، وأقول له «شششش» حين يبكي.

في الليل، كان يُسمَح لي بأن أضعَ محمّد في حضني، فيما تجلس ماما قربنا على الأريكة في غرفة الجلوسِ لتقرأ علينا قصّةً. ثمّ يدخلُ بابا ليجلس في مقعدِه المفضّلِ ويستمع إلى ماما وهي تقرأ. ومتى انتهَت من قراءة القصّة، كنتُ أقفز إلى حضن بابا فيما تضع ماما محمّد في سريره. ثمّ كانت ماما تقولُ لبابا أنّ عليه اصطحابي إلى السرير أنا أيضًا، لكنّ كلينا أي أنا وبابا، كنّا نفضّل أن أغفو على صدره. كان يروي لي قصصًا عن طفولته أو قصصًا يختلقها. وكانت قصّتي المفضّلة: العنزة التي تترك صغارها في البيت وتوصيها بألّا تفتح البابَ لأحدٍ ما لم يعرف كلمة السرّ، ومن ثمّ يأتي الذئبُ ويخدع الصغارَ متظاهرًا بأنّه الأمّ. تفتح الأجداءُ البابَ فيلتهمها الذئب! كم كنت أكره هذا الجزء. لكنّ العنزة الأمّ تعود فتخرِج الصغارَ من معدة الذئب بعد شقّها، وتضع مكانها كومةَ من الحجارة.

كنتُ أشعر بصدى صوت بابا يتردّد في صدره وهو يحكي لي القصص، ويبعثُ فيّ الدفءَ. حضنُ بابا كان المكانَ الأفضلَ في العالم.

إذًا، لم تحدث أمور سيّئة كثيرة لعائلتنا. حتّى أنّ ماما كانت تقول أنّنا محظوظون. وكنتُ أظنّ أنّ عائلتي ستبقى سعيدةً دائمًا إلى الأبد.

أردْتُ العيشَ في سوريا طوال الوقت

أردتُ العيشَ في سوريا طوال الوقتِ لأنّها مكانٌ مميّز. فهي بلادٌ قديمة جدًّا جدًّا، وقد عاشت عائلتي فيها منذ القدم. يقول جدّي مالِك أنّ من المهمّ معرفةَ من أين نأتي، لأنّه أمرٌ يحدّدُ هويّتنا. ويقول أيضًا علينا أن نفخرَ بكوننا سوريّين، فالشعبُ السوريّ لطيفٌ ونزيهٌ. في إمكانكم ترك مليون ليرة في المنزل ولن يسرقها أحد. دائمًا نتقاسم ما نملكه مع الجيران ونعتني بعائلاتِنا لأنّ العائلة هي الأهمّ بالنسبة إلينا. كما ندرك جيّدًا ضرورةَ أن نكونَ كرماءَ وأوفياء وصادقين أمام الله. نصلّي كثيرًا ليساعدَنا ربّ العالمين على أن نكون خيّرين. نريد حياةً بسيطة. هذا ما يهمّنا.

عندما كان جدّي صغيرًا، كان يعيش في الريف. وعندما كبُر، تزوّج بنانا سمر التي ترعرعت في حلب. لذا، انتقلا للعيش هناك على الرغم من أنّ جدّي لطالما أكّد أنّه يفضّل الريف، لأنّه أكثر سكونًا وهواؤه نقيٌّ. أمّا ماما وإخوتها وأخواتها كافّة فقد ولدوا في حلب. وبابا وإخوته وأخته كذلك الأمر. وأنا أيضًا ولدتُ في حلب مثلهم. وكنتُ صمّمت على أنّني عندما أكبر، سأقيم في الشارع المقابل لمنزل صديقتيّ الأعزّ، ياسمين وفاطمة، ولمنزل ماما وبابا، تمامًا مثلما كانا يقيمان في الشارعِ المقابلِ لمنزل أهلهما. وهكذا كنّا عائلتي وأنا، نستطيع تناولَ العشاء معًا طوال الوقت والذهاب في نزهاتٍ سيرًا على الأقدام إلى قلعةِ حلب، حيثُ نتبادل المزاح والضحك، وقد كان

الأمرُ في غاية البساطةِ، لأنّ أفراد عائلتي كافّة يُحبّون الضحك.
وكنتُ أودّ أن أصبحَ معلِّمةً وألقّن الأولادَ السوريّين اللغةَ الإنكليزيّة.
تلك كانت أحلامي.

لا شيء ساعدنا على نسيان غياب بابا

بدأت الأوقات العصيبة. أوّلًا أتوا لأخذ بابا بعيدًا. كنّا أنا وماما ومحمّد في منزل جدّتي العابد. وكان بابا وإخوته في الشارع، جالسين قبالة السوق كالعادة. غالبًا ما كانوا يقعدون هناك مساءً، على كراسٍ قابلة للطيّ، يشربون الشاي بالتفّاح ويضحكون فيما يسترجعون ذكرياتٍ طريفةً أو يتجادلون حول مَن هو الأكثر براعةً في لعبة الـ«بلاي ستايشن» أو مَن الأذكى والأنجح، بأصواتٍ عالية، حتّى لو لم يكن أحدٌ منهم غاضبًا. والواقع أنّ بابا وإخوته كلّهم ترعرعوا في حيّنا، لذا كان أصدقاؤهم جميعًا ينضمّون إليهم هناك. تقول ماما أنّهم يحبّون التظاهر بأنّهم ما زالوا مراهقين. أحيانًا، كنت أجلس معهم، فيمازحونني، قائلين أنّني أعتقدُ أنّني كبرت في حين ما زلت صغيرة.

في ذلك اليوم، أتى عمّي نزار مهرولًا إلى بيت جدّتي العابد حيث كنّا أنا وماما وجدّتي نحضّر طعام العشاء. أخبَرَنا بأنّهم أخذوا بابا. «هُم» أي المخابرات، أو الشرطة السرّيّة العاملة لمصلحة بشّار الأسد، رئيس جمهوريّة سوريا.

سألتُ ماما لِمَ لم يأتِ بابا إلى المنزل؟ وإلى أين ذهب ومتى يعود؟

«سيعود قريبًا يا بُن بُن»، أجابَتني وهي تعانقني، «يريد بعض الأشخاص طرح بضعة أسئلة عليه، ليس إلّا. سيكون كلّ شيء على

ما يرام».

لكنّني لم أعلمْ حتّى ما إذا كانت تقولُ الحقيقةَ، لأنّ الجميع بدوا قلقين جدًّا. حتّى أنّ أحدًا لم يشأْ تناولَ العشاءِ الذي حضّرناه. بقي جميع أعمامي في غرفةِ الجلوسِ يروون كيف أخذَت الشرطة بابا، وذلك لأنّ النظامَ يظنُّ أنّ كلّ شخصٍ جاسوس – خصوصًا إذا كان رجلًا. كان عليه استجوابُ الناس باستمرار للتحقّق من ولائهم. لم يكن بابا جاسوسًا البتّة، بل كان محاميًا وعمله يقضي بمساعدة الناسِ والحرصِ على إحقاق العدلِ والإنصافِ للجميع.

تلك الليلة، بقينا في منزل جدّتي، لأنّ فكرة العودة إلى بيتنا من دون بابا، كانَتْ تُحزنُنا للغاية. لذا، وجدنا أنّ من الأفضل أن نكونَ جميعًا معًا في بيتِ جدّتي ونقلقَ كلّنا معًا بشأن بابا.

مضى اليوم التالي، وبابا لم يعُد بعدُ. لم نكن نعرف مكانَه. حاولنا أن نُنشدَ أغنياتٍ، أن نلوّن رسومًا للترفيه عن أنفسنا. ثمّ حاولْنا أن نقرأ، لكن، لا شيء كان يُنسينا غياب بابا. ظلّ محمّد يبكي مطالبًا به، فبابا لم يتغيّب عن المنزل هكذا من ذي قبل. ورُحْت أكرّر له ما قالته ماما لي: «سيعود إلى البيت قريبًا». في تلك الليلة، صلّينا أمّي وأنا بخشوع. طلبنا من الله ورجوناه أن يعود بابا إلينا في أسرعِ وقت.

وبالفعل، هذا ما حدث! في اليوم التالي، عاد بابا إلى المنزل. بدا مُتعَبًا وكانت رائحتُه كريهةً، لكنّنا عانقناه رغم ذلك. قال لنا: «أنا بخير. ستكون الأمور على ما يرام».

لكنّها لم تكن كذلك، فسرعان ما اندلعت الحرب.

«هل أنتما بخير؟ هل أنتما بخير؟ هل أنتما بخير؟»

لم أفهمْ ما حدث حين سقطت القذيفة الأولى. كان يومًا عاديًّا ككلّ الأيّام؛ كنت في منزلِ جدّتي سمر وجدّي مالِك برفقةِ محمّد. كانا يعتنيان بنا خلال النهار فيما تذهب ماما إلى الكلّيّة وبابا إلى العمل. كانت ماما تهوى الجامعةَ وتدرسُ لتصبحَ محامية كبابا. أمّا أنا فكنت أحبّ أن أتظاهرَ بأنّني أذهبُ إلى الجامعة أنا أيضًا، وكنتُ ألوّن دفاترَ فروضي.

يومذاك، كنتُ جالسةً على الأرضِ ألهو بالدمى. وكنتُ أفضّل دُميتين على الأخرياتِ: الأولى بطولِ قامتي تقريبًا وترتدي زيّ التلامذةِ لأنّها تذهبُ إلى المدرسة، والأخرى دمية طفلة بثوبٍ زهريّ. وكان محمّد يدبّ حولي ويضحكُ كلّما جعلتُ الدمى تتكلّم بصوتٍ طريف، وهذا ما كنتُ أقوم به حين سمعتُ فجأةً... **بووووم!**

كان الصوتَ الأقوى الذي سمعْته في حياتي؛ صوتًا قويًّا إلى درجة أنّه قد يخترقُ جسمك، وليس سمعك فحسب. تحت تأثير الصوت والصدمة، تراخى جسمي كالجيلي.

لم ندرِ ما نفعلُ، لأنّنا لم نعرف ما كان يحدث فعلًا. بدأ محمّد يصرخ باكيًا، فيما هرَعت نانا سمر من المطبخ، قائلةً: «هيّا، هيّا! ابتعدا من الزجاج!»، أسرَعنا جميعًا إلى المطبخِ، حيثُ لا نوافذ.

سألتُ نانا ما الذي أحدثَ هذا الصوتَ القويّ ولمَ كان علينا أن نهرب. فأجابتْ أنّ قذيفةً سقطت في مكان ما في حلب.

«ما هي القذيفةُ؟»، سألتُها، فأجابت إنّها شيء يُفجّر كلّ ما حوله.

راودَتني فكرة مُخيفة: ماذا لو فجّرَت القذيفة ماما وبابا؟ حاولْتُ جاهدةً طردَ هذه الفكرة من رأسي لكن من دون جدوى. شعرْتُ بأحشائي ترتعد وأردتُ البكاء، لكنّني لم أفعل. لطالما قالت لي ماما إنّني شجاعة وقويّة حتّى قبل أن تندلع الحرب. كانت تقول أنّ الله خلقني هكذا. وكنْتُ محظوظةً أنّه فعل، فقد قُدّر لي أن أمرّ بلحظات عصيبةٍ كثيرة تتطلّب منّي قوّة وشجاعة، وإن لم أكن وقتذاك على علم بها بعدُ.

بعد وقت قصير، سمعنا باب المدخل يُفتح، وإذا بماما تركضُ نحو المطبخ وتُمسك بنا. «هل أنتما بخير؟ هل أنتما بخير؟ هل أنتما بخير؟»، راحت تسأل مرارًا وتكرارًا فيما تُعانقنا وتقبّلنا. كنتُ بخير، لكن حالما رأيتُ ماما بدأتُ أبكي لأنّني كنتُ خائفةً ولكن سعيدة بمجيئها في آنٍ. اتّصلَت ببابا في العمل. كان بخير، وقال إنّه سيأتي قريبًا. شعرتُ بقلب ماما ينبض سريعًا في صدرها حين عانقَتني. «كم قلقتُ عليكما!»، قالت. كانت ماما شجاعة جدًّا، مثلي أنا، على الرغم من أنّها كانت خائفة هي أيضًا. في الواقع، يمكن أن نشعر بالشجاعة والخوف في الوقت عينه. وأنا أعرف ذلك تمامًا فقد عرفتُ هذه الحالة مرارًا منذ ذلك النهار.

ونانا سمر عانقت ماما أيضًا – لطالما قالَت أنّ ماما «طفلتها الصغيرة» حتّى لو باتت راشدة. قالت نانا إنّ علينا اتّخاذَ بعض «التدابير» وأنّ على ماما الصعودَ إلى السطح لجلب حوض السباحة الصغيرِ خاصّتي، وذلك لجمع المياه فيه، تحسّبًا لانقطاعها.

ما لبثَت ماما أن خرجَت لتصعدَ إلى السطح، حتّى انفجرَت قذيفةٌ أخرى – أكبر وأشدّ دويًّا. هذه المرّة صرختُ. لم أقصدْ أن أفعلَ – بل

أتى الصراخ عفويًا. نزلتْ ماما الدرج بسرعة واحتضنَتني.

أمّا نانا سمر فقد أمسكت بيد جدّي مالِك، وقالت: «يا إلهي! ما عسانا نفعل؟» لكنّ أحدًا لم يُجب.

منذ تلك اللحظة، صار القصفُ والقصف والقصف خبزنا اليوميّ... كانت الطائرات العملاقةُ تحومُ في الفضاء وتلقي القذائف هنا وهناك، أينما يحلو لها. أحيانًا، كانت إحدى الطائرات تحلِّق على علوّ منخفضٍ جدًّا إلى حدّ أنّنا كنّا نَلمَحُ الطيّار. تُرى هل يُدرك أنّه يؤذي الناس ويقتلهم؟ لا بدّ من أنّه كان يُدركُ ذلك تمامًا، ولكن كيفَ استطاع؟

سألتُ ماما، لكنّها لم تكنْ تعرف الجواب. سألتُها أسئلة أخرى أيضًا، مثلًا، لماذا يريدُ هؤلاء أن يلحقوا الأذى بنا بمَدافِعهم وقذائفهم؟ لم أكنْ أفهمُ لِمَا يتقاتلون. كلّما طرحتُ على ماما هذه الأسئلة، اكتَفَت باحتضاني والقول ألّا أقلق. بل كانت تقول أنّه علينا الصلاة لتتوقّف المعاركُ عمّا قريب ونسلمَ من شرّها.

وهكذا، أخذتُ أصلّي كلّ ليلة قبل النوم: «أرجوك يا ربِّ أوقِفِ الحربَ». أريد أن تعودَ الأمور إلى مجاريها. ذات ليلةٍ، سمعَتْ ماما صلواتي فقالت لي: «لن تبقى الأمور على هذه الحال، يا بانة». كان في وسعي أن أشعرَ بحزنِها هي أيضًا.

قالت: «سينتهي هذا كلّه في وقت قريب».

لكنّه لم ينتهِ.

بِتنا جميعًا نعرف ما نفعل عندما نسمع القصف.

إن لم تعرفوا الحربَ يومًا، فقد تظنّون أنّ القذائفَ نوعٌ واحد فقط. لكن في الواقع، أنواعُها كثيرة ومتنوِّعة. وسرعانَ ما أصبحتُ أعرفُها كلّها لأنّني أتعلّم بسرعة. ويمكنُ تحديد الفرق بين قذيفة وأخرى مِن صوتِها.

منها ما يُطلق زعيقًا طويلًا كالصفّارة ومن ثمّ... بووووم.

ومنها ما يَهدر كمحرِّك سيّارة فرووم، فرووم ومن ثمّ... بووووم.

ومنها ما يُصدِر أصواتًا متتاليةً طاع، طاع، طاع... منذ لحظةِ إطلاقِها وحتّى ارتطامِها بالأرضِ. إنّها القنبلةُ العنقوديّةُ وهي عبارة عن قنبلة كبيرة تحتوي على قنابل كثيرة صغيرة داخلها، ومتى ارتطَمَت بالأرضِ، تطايرتْ شظايا حادّة في كلّ صوب.

ومنها ما هو صامت – من دون أدنى صوت تقريبًا، ومن ثمّ حين يحدث الانفجار بووووم، يضيء السماء بالأصفر الزاهي المُشرِق. أمّا المادّة التي تنيرُ السماءَ هكذا فتسمّى الفوسفور. ذات مرّة، استيقظتُ وذهبْتُ إلى ماما أوقظها أيضًا ظنًّا منّي أنّ الصباح قد بزغ. لكنّها قالت ما زلنا في منتصف الليلِ. أجبتها أنّني أستطيع رؤيةَ الشمسِ عبر النافذة؛ كان النور ساطعًا في الخارج. لكنّ ذلك لم يكن سوى الفوسفور.

أمّا أسوأ الأنواع فقنبلةُ الكلورين. عادةً، نحتاج إلى مادّة الكلورين لتطهير مياه حوضِ السباحةِ وتعقيمِها، وهي لم تزعجني قطّ وأنا أسبح. لكنّ انتشارَ مادّة الكلورين في الهواء يجعلُها تلسعُ العينين بشكل مؤذٍ إلى درجة أنّهما تمتلئان دموعًا كثيرة وإن لم نكنْ نبكي.

بِتنا جميعًا نعرفُ ما نفعل عندما نسمع دويّ القصف: إن كان دويّ القذائف بعيدًا منّا، كنّا نهرع إلى الغرفةِ الخاليةِ من النوافذِ في المنزلِ، والتي تستعملها ماما لتخزين الملابس العتيقة وأغراض التنظيف وأدواته. أمّا إن كان قريبًا، فكنّا نهرب سريعًا إلى القبو الذي استحال ملجأً بفعل القصف، أو على الأقلّ إلى بيت عمّي وسام في الطبقةِ الأرضيّة.

وحتّى في وقت العشاءِ، كنّا نقوم عن المائدة حالما نسمع هدير الطائرات، نترك طعامنا ونهبطُ طبقَتين عبر الدرج وصولًا إلى الملجإ. كان المبنى حيث نعيش مؤلّفًا من أربع طبقات: كنّا نقيم في الطبقة الثانية، فيما يتوزّع أعمامي وسام ومازن ونزار مع عائلاتهم في الطبقات الأخرى. كنت أحبّ عيشَنا جميعًا معًا في المبنى نفسه، خصوصًا، مع لانا، ابنة عمّي، لأنّها كانت بمثابة الأخت الصغرى التي لطالما تمنّيتُها.

وبما أنّنا كنّا نعيش كلّنا في مبنى واحد، كنّا نهرع جميعنا معًا إلى الملجأ. كان المبنى يتضمّن ملجأين. كلاهما كان معتِمًا وباردًا، بجدران كالحة من الإسمنت الرماديّ، مليئًا بالأدوات والصناديق القديمة. لم يكن التيّار الكهربائيّ متوفّرًا؛ أحيانًا كنّا نحظى بمصباح جيب، ولكن غالبًا ما كنّا مرغَمين على البقاء في العتمة. كم كرهتُ ذلك الملجأ! لكنّه كان أكثر أمانًا من شقّتنا. أحيانًا، كنّا نُجبَرُ على الانتظارِ فيه ساعاتٍ طويلةً ريثما يتوقّف القصف، بالتالي، يصبح طعامُنا باردًا، فلا يعودُ أحدٌ يرغب في تناوله. فكنّا ننظّف المائدة

ونوضّبها ونذهب إلى فُرشِنا. أمّا أنا فأصلّي بعضَ الوقتِ قبل أن أستسلم للنومِ.

كان علينا تناسي الحرب والتصرُّف بشكل طبيعيّ

عطلة عيد الفطر هي عطلتي المفضَّلة لأنّها جدّ ممتعة – أو كانت كذلك قبلَ الحرب.

كنّا في منزل جدّتي وجدّي العابد، تحديدًا منزلهما الجديد، للاحتفال بالعيد. لم أكن أحبّ ذلك المنزل بقدر ما كنت أحبّ منزلَهما القديم. كانَتْ شقّتهما القديمة واسعة إلى حدّ أنّنا كنّا نركض في أرجائها. وكانت فيها آلةُ مشي كهربائيّة لطالما استمتعت بالسير عليها، بالإضافة إلى شرفة كبيرة جدًّا. كانت لديّ دُمى كثيرة تسكن فيها وتُحبُّها أيضًا أكثر من المنزل الجديد. على الرغم من ذلك، كان أفضل ما في المنزل الجديد أنّه قريب منّا في شرق حلب، وكان في إمكاني الذهاب مشيًا إليه كلّ يوم تقريبًا. لكنْ، عندما بدأ جيشُ النظام قصفَ شرق حلب، خافت جدّتي من القذائف ودويّها، فقرّرَت الانتقال إلى شقّة في غرب حلب. كانت تلك المنطقة أكثر أمانًا، لأنّ الذين يعيشون فيها كانوا في معظمهم ممّن يعملون لمصلحة النظام أو من مؤيّديه. في السابق، كانت حلب مدينةً واحدةً ولكنّها باتَتْ الآنَ مقسومةً إلى شرقيّة وغربيّة. أمّا المنطقة الواقعة بين الجهتَين، فكانت الأشدّ خطورةً، لأنّ الجيش السوريّ الحرّ كان يحاربُ النظام فيها. كان هناك جنود كثرٌ ومدافع، وكان الناس يُقتَلون كلّ يومٍ تقريبًا.

بعد احتفال العيد، وعلى الرغم من الحربِ، كان الجميع في مزاجٍ جيّدٍ. لطالما ذكّرتنا ماما بأنّ علينا تناسي القذائف والتصرّفَ بشكلٍ طبيعيّ، وكنّا ننجحُ في ذلك أحيانًا. كنّا أنا ولانا نلعبُ لعبةَ عرضِ الأزياءِ بملابسِ العيدِ الجديدة. كنتُ أتظاهر بأنّني إحدى الأميرات المفضّلة لديّ – رابونزل. أريد أن يكون شعري بطول شعرها، لذا لن أقصّه أبدًا، وإذا بي أسمع ماما تتكلّم في الهاتف مع نانا سمر: شقيقة ماما الصغرى – خالتي إيمان – أُصيبَت بالرصاص. كانت قد أنهت امتحاناتِها في الجامعة وركبت سيّارة متوجّهةً إلى بيت نانا سمر للاحتفال بالعيد، عندما أصابتها إحدى طوّافاتِ النظام بعدما راحت تطلق النيران على كلّ سيّارة تحاولُ العبورَ من غرب حلب إلى شرقها. أصابتِ الرصاصات ساق خالتي إيمان، فاضطرّوا إلى نقلِها إلى مستشفى. خفتُ كثيرًا عليها. أنا على يقين أنّ ساقها كانت تنزف بشدّة. كم تمنّيتُ أن أرى خالتي وأعانقَها لكنّها كانت بعيدة جدًّا! كما كان العبور مجدّدًا إلى الجهة الشرقيّة في غاية الخطورة. لم نكن نجازفُ بذلك إلّا نادرًا حين نذهبُ لزيارة جدّتي العابد وخلال النهار فحسب، بعدما نتحقّق من تراجع حدّة المعارك. على الرغم من ذلك، كان الأمرُ مُرعبًا على الدوام. لا أحد يعرف ما قد يحدث.

كانَتْ خالتي إيمان قد نُقِلَتْ إلى مستشفى في المنطقة الريفيّة لأنّها أكثر أمانًا، ولأنّ مستشفيات كثيرة في حلب قُصفتْ ولم تعدْ تستقبلُ المرضى. اضطرّت خالتي إيمان إلى ملازمة المستشفى أسبوعين قبلَ أن تعودَ إلى البيت. عندما عادتْ أخيرًا إلى بيت نانا، سُررْتُ كثيرًا، فعانقتُها بشدّة، لكنّني لم أشأ أن أرى الندبات الحمر القانية التي بدت كديدان منتفخة في ساقها. وقد قال جدّي مالِك أنّ خالتي إيمان عادت «جيّدة وكأنّها جديدة».

«ماذا لو كانا ميّتَين؟»

أتت أوقاتٌ عصيبةٌ أكثر. ذات يوم، اختفى عمّي مازن وعمّي يَمَن فجأةً! خرجا صباحًا لجلب طعام الفطور ولم يعودا على الإطلاق. قلقنا جدًّا من أن تكون المخابرات قد أوقفتهما مثلما فعلت مع بابا. لكنّ بابا تلقّى اتّصالًا هاتفيًّا، وقال له المتَّصلُ إنّ عمَّيّ معه وعليه أن يدفع فدية ليستعيدهما.

حضر جميع أعمامي إلى بيتنا وتناقشوا بنبرات متوتّرة، محاولين إيجاد الطريقة المناسبة للتصرُّف. فقد طالب الخاطفون بمبلغ ماليٍّ أكبر بكثير ممّا تملكُه عائلتي. عاود بابا الاتّصال بالرجل وسأله ما إذا كان يقبل بمبلغٍ أقلّ. كان بابا هو المسؤول عن المفاوضات، لأنّه الأكبر سنًّا بين إخوتِه، مثلي تمامًا. لذا، كان عليه التحدّث إلى الخاطفين وعقدُ صفقةٍ معهم. ثمّ قاد جدّي مالِك عمّي وسام بالسيّارة ليسلّم المال المطلوب.

كان من المفترض أن يُترَكَ المبلغ في أحد مستوعبات القمامة، على طريق قلعة حلب.

«كُن على حذر»! نبّهنا جميعُنا عمّي وسام. كانت جدّتي العابد الأكثر قلقًا، وبالكاد سمحت له أن يغادر عندما عانقته. كنّا متوتّرين، إذ خشينا أن يخدعَنا هؤلاء ويأخذوا المالَ ويهربوا من دون تسليمنا عمَّيّ مازن ويَمَن.

راحت جدّتي تبكي وتبكي وهي تردّد: «ماذا لو كانا ميتَين؟». أكّدتُ لها أنّهما لم يموتا، ثمّ أسندتُ رأسي إلى حضنها، قائلةً: «سيكون كلّ شيء على ما يرام». هذا ما قالته لي أمّي.

وكنتُ على حقّ! كانا على قيد الحياة. انتظرنا طوال النهار، وقبل حلول الظلام، عادا إلى البيت! كانا تعبَين وحزينَين، تمامًا مثل بابا حين عاد إلى المنزل بعد ذهابه برفقة رجالِ المخابرات. لكنّ أحدًا لم يؤذِهما في الأقلّ. لقد عُصبت أعينهما طيلة الوقتِ، لذلك لم يتمكّنا من التعرُّف إلى وجوه الخاطفين أو هويّتهم.

بعد ذلك، قال جدّي مالِك إنّ الوضعَ يزدادُ خطورة. ففي الحرب، عليك اختيارُ طرفٍ ما، خصوصًا إن كنتَ ذكرًا. عليك المحاربةُ إلى جانب النظام وإلّا اعتبروك من الثوّار وأخذتكَ المخابرات بعيدًا.

هكذا قرّر جدّي مالِك أنّ الوقتَ قد حان ليرحلَ ماهر وأحمد، شقيقا ماما الأصغران، عن المنطقة. شعرت بالأسى الشديد. فأنا أحبّ خاليّ لأنّهما يقدّمان لي السكاكر ويعتبرانني شقيقتَهما الصغرى. والآن سوف يرحلان بعيدًا إلى مصر لمتابعة الدراسة.

ذهبنا جميعًا إلى بيت نانا سمر لكي نودّعهما. لم أستطعْ تصديقَ أنّهما سيرحلان. سوف أشتاق إليهما كثيرًا. «لا أريدُ أن ترحلا، أريد أن تبقيا معَنا»، رحْتُ أقول لهما. فأجابا: «ولا نحن نودّ الرحيل». خرجتُ راكضةً خلفهما عندما ركبا السيّارة. ورحتُ أركضُ خلف السيّارة طوال الطريق إلى آخر الشارع. سمعْتُ ماما تناديني لأعودَ، وشعرْتُ بساقيّ تلتهبان وتؤلمانني، إذ كنتُ أركض بسرعة فائقة للّحاق بهما. انقطعَت أنفاسي! لكنّني لم أتوقّف على الرغم من ذلك. كان خالي ماهر يلوّح لي بيده من النافذة طوال الوقت. وقبل أن تختفي السيّارة عن ناظريّ تمامًا، سمعتُهما يصرخان: «نراكِ قريبًا يا بُن بُن!».

لكنّني لم أرَهما بعد ذلك.

«توقّفوا عن قصفِنا!»

بعد وقت قصير، بدأتُ أعتادُ القذائفَ نوعًا ما. لكنْ، كانت هناك أشياء أخرى عدّة مُرعبة غير القذائف، كتلك المرّة حين كنّا أنا وماما في منزل جدّتي وجدّي العابد لمناسبة عيد الأضحى. آنذاك، بقينا في منزل جدّتي أسبوعًا كاملًا. لم يستطعْ بابا مرافقتنا في الليلة الأولى لأنّه كان يساعد عمّي وسام في متجر الألبسة خاصّتَه، كانَ مكتظًّا لمناسبة العيد، فالزبائن يشترون ملابسَ العيدِ الجديدةَ.

وكنْتُ قد حظيتُ بحذاءِ باربي زهريّ برّاقٍ، أنتعله طوال النهار لكثر ما أحببته. توسّلتُ ماما أن تدعني أنامُ وهو في قدميّ، لكنّها قالت إنّ عليّ خلعَه قبل الإيواء إلى الفراش. وضعتُه محاذاتي، قريبًا جدًّا منّي كي أستطيعَ انتعالَه حالما أستيقظُ في الصباح.

كنت أغطّ في نوم عميق حين أيقظني فجأةً دويّ كبير **طاع – طاع – طاع – طاع**. كنتُ أعرف هذا الصوتَ جيّدًا: بنادق رشّاشة. استيقَظ محمّد ولانا أيضًا، فقلت لهما أنّ الجنود يتعاركون في الخارج. كان الكبار قد صحوا جميعًا في البيت، والكلّ يركضُ في أرجاء الشقّة، صارخًا ومحاولًا أن يفهمَ ما يحصل، ولِمَا يحاصرُ الجنودُ بيتَ جدّتي ويطلقون النيران عليه.

بسبب حدّة إطلاقِ النارِ، كان الاقترابُ من النوافذ أمرًا في غاية الخطورة. حتّى أنّنا سمعنا أيضًا انفجارَ عبوات ناسفة حول المبنى. فتَحنا الباب المؤدّي إلى الرواق، فسمعْنا الجيرانَ يصرخون ويبكون

وسط أزيز الرصاص ودويّ القذائف وصياح الجنود. «ما هذا؟ ما الذي يجري؟ لِمَ يطلقون النار على المبنى؟»، راح الجميع يصرخ بذعر.

قرّرنا كلّنا أن ننزل إلى الملجإ في أسرعِ وقتٍ ممكن. لم نكنْ نرتدي سوى لباس النوم، وكان الملجأ باردًا. كان يفترض بنا الركض بسرعة كبيرةٍ إلى حدّ أنّني لم أملك الوقت الكافي لأنتعل حذاءَ باربي خاصّتي الجديد. كنتُ أتمنّى لو أنّني نمت وهو في قدميّ كما أردتُ أن أفعلَ.

التصق الجيرانُ وعائلاتهم ببعضهم بعضًا بحثًا عن شيءٍ من الدفء. ومرّت ساعات وساعات ونحن نسمع أزيزَ الرصاصِ وصراخَ الرجال. كان التعبُ والجوعُ قد بدآ ينالان منّا. لم يكن لدينا مياه ولا طعام.

ظلّ أحدُ الصبيان الصغار يبكي من شدّة الجوعِ، فتساءلتُ عمّا إذا كان لم يعتَدِ الملاجئ والركض للاختباء فيها طوال الوقت، بما أنّه يعيش غرب حلب. أمّا محمّد وأنا فكنّا نعرف كيف نكون مطيعَين وصبورَين وهادئَين في الملجإ.

تحدّثَ والدُ الصبيِّ الصغيرِ إلى أعمامي وأشخاص آخرين، ثمّ قرّرَ الصعود إلى أعلى الدرجِ ورجاء الجنود، علّهم يدعوننا نغادر المبنى، كوننا في حاجة إلى تأمين الطعام والمياه للأطفال.

كان في وسعنا سماعه يصرخ «توقّفوا عن قصفِنا! نحن مدنيّون عزّل. وهذا منزلنا. دعونا نذهبْ».

لم أصدّق أنّ الجنود قد سمعوه وسط أزيز الرصاص، لكنّ أحدهم أجاب: «حسنًا، غادروا الآن. الآن! لديكم خمس دقائق فقط».

أمسكَت ماما بي وبمحمّد وصعدنا جميعًا من الملجإ على جناحِ السرعةِ إلى الخارجِ. لكنّنا بقينا على مقربة من المبنى كأنّنا نختبئُ. ركضنا بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ كأنّنا في سباقٍ. كان الظلامُ قد حلّ

تقريبًا، والجوّ في الخارج أبرد من الملجإ. كنت حافية القدمين، رحتُ أرتجفُ في لباس نومي الرقيق.

هرعنا إلى المبنى المجاور، فرحّب بنا سكّانه ودعونا إلى الدخول. أعطونا بطّانيّات وبعض المياه. كم كانَ مذاقُ الماءِ لذيذًا بعد طولِ عطش! وكم كانَ جميلًا أن أشعرَ بسيلها ينسابُ في حلقي الجافّ المتيبّس ليتغلغل بعد ذلك في معدتي. لقد شعرتُ بالمياه حقًّا حين بلغَت معدتي لأنّها كانت فارغة تمامًا بعدما أمضيتُ نهارًا كاملًا من دونِ تناولِ أيّ طعام.

ذهب أحد أعمامي ليسأل سكّان المبنى الآخرين عمّا حدث. ثمّ عادَ وأخبرَنا أنّ ثمّة رجلًا مهمًّا كان يعملُ لمصلحةِ النظام ويقيمُ في مبنى جدّتي. وقد حاصر الثوّارُ المبنى بهدفِ القبضِ عليه.

بعد ساعاتٍ قليلة، كان الظلام قد هبط كليًّا وساد صمت تامّ. بدأ المطر ينهمر في الخارجِ. عاد العسكريّون إلى ديارهم، بالتالي استطعنا العودة إلى بيتنا نحن أيضًا. اتّصلنا بجدّي مالِك ليأتي ويصطحبنا. لم يكن لدينا سوى سيّارة واحدة، وكان من الخطر جدًّا أن نعبر إلى شرق حلب ولو مرّة واحدة، لذا لم يكن في وسعنا القيام برحلات عدّة ذهابًا وإيابًا. أُرغمنا على حشر أحدَ عشرَ فردًا من العائلة في السيّارة – أربعة رجال، وأربع نساء، وثلاثة أولاد. لستُ أدري كيف تمكّنّا من ذلك. كنّا جميعًا مبلّلين بل نقطر ماءً ونكاد نتجمّد من شدّة البرد. حزنتُ بشأن محمّد لأنّ رائحته كانت كريهةً جدًّا، وكان يبكي بكاءً شديدًا بسبب حفّاظِه المُتّسخِ؛ فهو لم يحظَ بحفّاظٍ نظيف طوال اليوم. بدا أنّ الأوقات السعيدة التي أمضيناها خلال عشاء العيد قد أصبحت بعيدةً إلى حدّ أنّنا بتنا بالكاد نستطيع تذكّرها.

قلق بابا علينا كثيرًا عندما عدْنا إلى البيت وأخبرناه بكلّ ما جرى. قال إنّه سيساعد جدّتي وجدّي في إيجاد مسكنٍ جديد. أمّا جدّتي

فقالت إنّ الوقت قد حان كي تخطّط هي وجدّي لمغادرة سوريا. وبكت كثيرًا بعد ذلك.

لم يعد هناك مكان آمن قَطّ

بعد أيّام معدودة، أقلّنا جدّي مالِك من جديد إلى منزل جدّتي العابد، لنجلب كلّ ما أُرغمنا على تركِه من أغراض حين هربنا. أردتُ المجيء أيضًا لآخذ حذاء باربي خاصّتي. وفيما توقّفْنا لنركن السيّارة أمام المبنى، قال جدّي مالِك: «علينا الدخول والخروج في أسرع ما يمكن».

لكن، عندما دخلْنا المبنى، وجدْنا جنود النظام فيه. كانوا يتنقلّون بحرّيّة في شقّة جدّتي وجدّي كأنّها شقّتهم. كانوا يحملون بنادق أكبر حجمًا من محمّد. كانوا غاضبين جدًّا، وسرعانَ ما أخذوا يصرخون. لَمَحْتُ أسنانَ أحد الرجال، صفرًا بشعة، فيما كان رذاذ البصاق يتناثر من فمه وهو يتكلّم. راح يقول أنّه متأكّد من أنّ أحدَنا أخبر الثوّار بأنّ صديقَهم يقيم في المبنى هذا.

لكنّ أحدًا منّا لم يفعل، فنحن لم نكن نعرف حتّى أنّه يُقيم هنا.

لم يصدّقنا الرجل. بل قال إنّ رجال عائلتنا كلّهم يعملون لمصلحة الثوّار لا محالة. حتّى أنّه أمر ماما بأن تتّصل ببابا وبإخوتها الآخرين ليأتوا فورًا، وإلّا فسوف يذهبون لإيجادهم بأنفسهم. وقد طلب عنواننا أيضًا.

خفْتُ كثيرًا لأنّه لم يصدّقنا. كان بابا في المنزل مع محمّد، وإن أخذوا بابا بعيدًا، فمَن الذي سيبقى مع محمّد؟ أم إنّهم ينوون أخذ محمّد أيضًا؟ لم أكن أعرف.

ثمّ قال الرجل للكبار: «أعطوني هواتفكم الآن!».

أجابت ماما أنّها لم تحمل هاتفها، ثمّ قالت فجأةً: «عليّ أخذُ بانة إلى المرحاض»، مع أنّني لم أكن أريد ذلك.

حينَ دخلْنا الحمّامَ، قالت ماما: «شش، شش» وأخرجتْ هاتفَها. كانت خبّأته تحت ثيابِها. كان تصرّفًا ذكيًّا للغاية منها. في الواقع، لا يجدر بنا أن نكذب، لكنّ الكذبَ كانَ ضروريًّا هذه المرّة.

اتّصلَت بابا، هامسةً: «غسّان، جيش النظام هنا. يريدون أخذَ الرجالِ كلِّهم. إنْ حدث لنا أيّ سوء، فالنظام هو المسؤول. أحبُّكَ». ثمّ أقفلَتْ الخطّ. سحبنا سيفونَ المرحاضِ مع أنّنا لم نستعملِ الحمّامَ. لم أشإ الخروجَ من الحمّام. ماذا لو قرّر الجنود إطلاقَ النارِ علينا؟

شدّت ماما على يدي حتّى كادَت تعتصرُها، ما أراحني بعضَ الشيء.

ثمّ عدْنا إلى غرفةِ الجلوسِ، حيث استبقانا الجنودُ أربعَ ساعاتٍ، قبلَ أن يأمرونا بالمغادرةِ أخيرًا، لكنّهم حذّرونا من العودَة ثانيةً. حاولْنا جمع أغراض جدّتي في أسرع ما يمكنُ، لكنّ الجنودَ كانوا قد استولوا على معظمها – جهاز الكمبيوتر والتلفزيون والبياضات والمناشف والثياب. لحسن حظّي، كانَ حذاءُ باربي خاصّتي لا يزال موجودًا، لكنّني شعرْتُ بالأسى، إذ فرحتُ به، فيما جدّتي العابد كانت حزينةً جدًّا. وقد ذرفَت الدموع مجدّدًا. بدا لي أنّ جدّتي تبكي طوال الوقت، ولم أعدْ أدري كيفَ أحسّن حالَها ومعنويّاتِها. لم يكنْ لجدّيّ أيّ مكانٍ يذهبان إليه. كان البقاء في شرق حلب في غايةِ الخطورة، ولم يعُد يُسمَح لنا بدخول غرب حلب على الإطلاقِ.

لم يعدْ هناك مكان آمن مطلقًا.

كرهتُ الحربَ من كلّ قلبي

قبلَ انهمارِ القذائفِ الكبيرة، كنتُ أذهبُ أحيانًا إلى منزلِ نانا سمر وجدّي مالِك، كما كنتُ أرتادُ المدرسةَ بضعة أيّامٍ في الأسبوع. كنتُ أتعلَّم الحروفَ والألوانَ وأقرأُ كتبًا كثيرة جديدةً. كنتُ أشعر بالحماسةِ والسرورِ حينَ أذهبُ إلى هناك.

ذات صباحٍ، نهضْتُ من الفراش كالمعتادِ، أبحث عن ماما لتساعدَني في ارتداءِ ملابسي. لكنْ، ما إنْ خطوْتُ بضعَ خطوات، حتّى انفجرت قذيفةٌ وكانت قريبة جدًّا من بيتِنا. وقعْتُ أرضًا ووضعْتُ إصبعينِ في أذنيّ. سمعتُ بووووم كبير، تلاه تكسُّرٌ شديد كالتصفيق إنّما أقوى بكثيرٍ. كان زجاجُ النافذة كلّه يتهشَّم متطايرًا؛ مليون شظيّةٍ من الزجاج الحادّ كالسكّين تساقطت في آن واحد على السرير، حيث كنتُ نائمةً قبل قليل.

صرخَت ماما اسمي وأمسكَت بي. كان وجهُها قد استحالَ أبيضَ كالثلجِ.

قلتُ لها أنّني بخيرٍ. عانق بابا كِلتينا بشدّة، ومن ثمّ ذهب يبحث عن أعمامي ليصلحوا زجاج النوافذ. تمنّيتُ حينذاك لو يُصلِحون الأوضاعَ في البلاد منَ الحربِ كذلك.

لم أبكِ حين سمعتُ دويّ القذيفةِ، لكنّني بكيْتُ لاحقًا عندما قرّر بابا وماما أنّني لن أذهبَ إلى المدرسةِ بعدَ الآن. فالمكان لم يعُد آمنًا،

ومن الممكن أنّ تسقط قذيفةٌ على مبنى المدرسة لأنّ قوى النظام لا تحبّ المدارس، بالتالي تقصفُها باستمرار.

وتوجّبَ عليّ أيضًا الامتناعُ عن الذهاب إلى حوض السباحةِ كما إلى الحديقةِ العامّة. كنتُ على وشكِ أن أصبحَ سبّاحةً ماهرةً إلى أن... لم يعدْ في وسعي ارتيادُ المسبح. كما لم يعد في إمكاني اللعبُ في الخارج مع ياسمين، صديقتي الأعزّ، فقد تسقطُ قذيفةٌ كبيرةٌ على رأسينا. حتّى أنّ ماما توقّفت عن ارتيادِ الجامعةِ بسبب الخطر. رحتُ أشعرُ بغصّة شديدةٍ في حلقي كلّما فكّرتُ في أنّنا لن نقوم بالأمور التي نحبّ بعدَ الآن. فكرهْتُ الحرب من كلّ قلبي.

كانَ من واجبي أن أحميَكِ يا بانة. فسلامةُ الأولادِ تأتي دائمًا على رأس أولويات أمهَاتهم. يومَ بدأتِ القذائفُ الكبرى الأولى تتساقطُ على حلب في صيف 2012، مرزئ بلحظات عصيبةٍ وقاسيةٍ حينَ أدركتُ كم ستكونُ المسألةُ شاقّةً. كانت تلك المرّة الأولى التي أشعرُ فيها بالعجزِ – وهو شعور سوف أختبره مرارًا وتكرارًا.

كان يومًا جيّدًا – لقد خضعنا لامتحانات نهاية العام، وكنتُ مسرورةً لأنّني أجبتُ بكلّ ثقةٍ عن الأسئلةِ جميعها؛ فقد أثمرت تلك الليالي كلّها التي أمضيتها في الدرس والتحضير طوال الأسبوع الفائت، بعدما كنتُ أودعكما أنتِ ومحمّد الفراش. كنتُ أحصل على علامات ممتازة وأستمتع حقًّا بدروسي، ومع تبقّي عامين فقط لأنال شهادةَ الحقوق، أخذتُ أرسم مستقبلي منذ الآنَ. تعرفين كم أحبّ مهنة التدريس – فقد فكّرتُ في أن أصبحَ أستاذةً في الحقوق والقانون، وهكذا أجمعُ بين شغف التعليم ومهنة الحقوق.

أثناءَ خضوعِنا للامتحانات، كنّا أنا وغيري من الطلّاب نسمع بشكل متقطّع قرقعة قذائف صغيرة – وقد سعينا جاهدين إلى تجاهلها. فقد اعتدنا أمرها. منَ المضحكِ أن تتحوّلَ في مرحلةٍ ما فرقعاتُ القذائفِ مجرّدَ ضجيجٍ خلفيّ في وسعِنا تجاهلُه، على غرار زقزقة عصفور أو رذاذِ مطرٍ. إنّما في ذلك اليوم تحديدًا، تبدّل مقياسُ الحربِ حين حلّقت الطائراتُ وبدأ الهجومُ الجويُّ على حلب.

بعدَ الامتحاناتِ، ركبتُ الباصَ متوجّهةً إلى بيت جدّتِك لاصطحابِكِ، وإذا بالسماءِ تنفجر نارًا ودخانًا. كان من الصعبِ فهمُ ما يحصل – كأنّما حقيقةٌ أخرى جديدة قد ظهرت فجأةً، فيما بقيتُ أنا عالقةً قبلَ ذلك بخمسِ دقائقَ، في مكان ما، حيث كنتُ أفكّر في ما سأطهو للعشاء، كأنّني بتُّ عاجزةً عن مواكبةِ الوضعِ الجديدِ، وضعِ القذائفِ التي تمطرُها السماء فوق رأسي. ربّما هو مشهدٌ مبتذل متكرّر، لكنّه ظهر كفيلم رديء، أو كابوس سوريالي. بدا... غيرَ معقول.

أمّا ركّاب الباص الآخرون فقد بدوا مصعوقين ومرتبكين، شأنهم شأني.

أحيانًا، تأتي لحظات في الحياة تفصل بين ما كان «من قبلُ» وما أصبح «من بعدُ»، فنفهم أنّ الحقبتين ستكونان مختلفتين تمامًا من الآن فصاعدًا. كان الوضع هكذا نوعًا ما. بدأتِ المرأةُ الجالسة قبالتي، والتي يفصلُ بيني وبينها ممرّ، تصلّي بصمتٍ وإلحاحٍ.

حين عبرَ الباص جسرَ الشعّار، رأينا سحابةً هائلةً من الدخانِ الأسودِ على بُعد بضعةِ أميال. كنتُ على يقين أنّها قريبةٌ من بيتِ جدّتِكِ، حيثُ كنتما أنتِ ومحمّد، فانتابني الهلعُ. كنتُ قد سمعتُ آنفًا عبارة «يخطف الأنفاس»، لكنّني لم أعلم يومًا أنّ الأنفاسَ تُخطف فعلًا. شعرتُ بأنّ الهواء كلّه سُحب من جسدي وبأنّ رئتيّ تعطّلتا فجأةً. لاحقًا، سوف أعتاد هذا الشعور، إنّما في ذلك اليوم كان لا يزال غريبًا عنّي كليًا. لم أختبرْ شعور الخوف في حياتي من قبلُ.

رحلة الثلاثين دقيقةً تلك إلى بيتِ جدّتكِ، كانَتِ الأطولَ في حياتي. فقمّة التعذيب هي أن يضطرَّ المرءُ إلى أن يتساءل ولو خلالَ لحظةٍ عمّا إذا كان سوء قد أصاب أولاده. كان ذلك قبل أن أحملَ معيَ الهاتفَ الجوّالَ أينما ذهبتُ – لصعب عليكِ أن تتخيّلي هذا حتى – بالتالي، لم تكن لديّ وسيلةٌ للتواصل مع أبيكِ أو جدّيكِ والتحقّق ممّا إذا كان الجميع بخير. وجلّ ما كان في وسعي فعلُه هو الانتظار والقلق.

لذا، عندما وصلتُ أخيرًا إلى بيت نانا واحتضنتكِ أنتِ ومحمّد، وتأكّدت أنّكما بخير وعلى قيد الحياة، أقلّه موقّتًا – شعرتُ بسعادة خالصة تضاهي بشدّتها السعادةَ التي غمرتني عندما وُلدتما. تلك السعادة التي تولد من رحمِ الاطمئنانِ بأنّ كابوسيَ الأسوأ لم يحصل. لم تدم سعادتي طويلًا لأنّها تحطّمت تحت وطأة قذيفةٍ أخرى. وهكذا بدأت الدوّامة.

ربّما كان علينا أن نستعدّ أكثر لذلك اليوم، لليوم الذي تصل فيه المعارك إلى حلب أيضًا. فقد كانت طبول الحرب تُقرع منذ أعوام عدّة، وكنّا قد تابعنا سيرَ المعاركِ والصراعاتِ والاضطراباتِ كلّها في الدول الأخرى ضمن إطار «الربيع العربيّ». لقد سقطت حكوماتٌ وخُلع قادة وقُتلوا في أمكنة أخرى، لكنّ ذلك بدا بعيدًا جدًّا منّا. اعتقدنا أنّ بلدنا بمأمن من هذه الأحداث. وأفترض أنّ الجميع يظلّ يعتقد هذا إلى أن يفوت الأوان.

لكنّ، في سوريا، في تلك المرحلة تحديدًا، كانت الحياة حلوةً وهانئةً بشكل عامّ. إن كنتم، أقلّه على غرار أسرتِنا، من الطبقة الوسطى ومن المثقّفين، فثمّة فرصٌ لا بأسَ بها وفي وسعكم بناء حياة كريمة لعائلاتكم، كما فعل أهلي من أجلي وأهلهم من أجلهم من قبل، وهكذا دواليك بالعودة إلى أجداد أجدادنا وفق ما أتذكّر. كان حقّكِ الطبيعيّ يا بانة أن تحظَي بحياة سعيدة وطويلة في سوريا، وقد سلبوك إيّاه.

حتى حين اندلعت أعمال العنف في بلدنا – أي الاحتجاجات في درعا في العام 2011 عندما أوقِفَ مراهقان وضُربا بعنف وعُذّبا على يد النظام، وذلك لأنّهما رسما بالرذاذ الملوّن على جدران مدرستهما صورًا وكتابات ضدّ نظام الأسد – أصبنا بالصدمة والاشمئزاز، بيد أنّ الحدث بدا بعيدًا منّا أيضًا آنذاك. كان مأسويًا ولكن بعيدًا، مثله مثل هموم كثيرة للناس. لم نشعر بمعارضة كبيرة في حلب، بل كنّا مقتنعين بأنّ أعمالَ الشغب تلك والتمرّدات البسيطة سوف تتراجع وتفشل أو يتمّ حلّها أو احتواؤها.

أجل، كنتُ مذعورةً حين أوقفَت قوى النظام والدَكِ. كانت المرّة الأولى التي يبلغ فيها الاضطراب والتململ عتبة بيتِنا، وكنت قد سمعت قصصًا عن الفظاعات التي قد ترتكبها – أشكال وأنواع من التعذيب لا يمكن تصوّرها حتّى. لكنّ والدَكِ وأنا لم نكن من الناشطين السياسيّين – لم نكن مع النظام ولا ضدّه – بل جلّ ما أردناه هو أن نعمل بكدّ لنعيل عائلتنا. كنتُ أكيدة من أنّ غسّان لم يرتكب شيئًا يدعو إلى القلقِ. حتّى لو كانت تلك الساعات الأطول في حياتي، وأنا أتخيّل وأستعدّ للأسوإ، كنت لا أزال مقتنعة بأنّ والدكِ سيكون بخير، وبأنّه سيعود إلينا. أمّا الاحتمال الآخر – ألّا نراه مجدّدًا – فلم يكن واردًا، حتّى لو حدث لزوجات عدّة في سوريا أن اختفى أزواجهنّ بشكل مفاجئ.

بالنسبة إليّ، كان التفاؤل سلاحي ضدّ الخوف واليأس. كنتُ أستمدّ أملي من التفاؤل لا محالة.

وعلى الرغم من الصعاب كلّها، كنّا والدكِ وأنا نؤمن بشكل أو بآخر – أو بالأحرى نرغم نفسينا على الإيمان – بأنّنا سننجو. نزعة الإنسان إلى التفاؤل هي قوّته العظمى ومسؤوليته الكبرى.

هذا لأنّ الحربَ في الحقيقةِ كانت كموجة محيط بعيدة، استجمعتْ ما يكفي من قوّة وطاقة وتحوّلت مع اقترابها من حلب تسونامي مدمّرًا، انقضّ علينا بسرعة مخيفة فأعمى أبصارنا وبصائرَنا، وفجّرَ حياتَنا يومَ كنتُ في طريق العودةِ منَ الجامعةِ. وباتت هناك أحداث «ما قبل» وأحداث «ما بعد» ذلك – شُعيرة فاصلة رفيعة رسمها القَدَر.

كان من المستحيل أن نعرف إلى أيّ مدى ستتفاقم الأوضاع سوءًا. لو أدركنا منذ البداية مَا ستؤولُ إليه الأمورُ في حلب أو الفظاعاتِ التي تنتظرنا، لكنّا رحلنا. فكثرٌ رحلوا عند بدء الاشتباكات، عندما كان الأمر لا يزال ممكنًا. بعضهم حالفَه حظّ جيّد، لكن في المقابل سمعنا قصصًا مريعة عن عزلة وفقر، ومن ثمّ الأسوأ، إذ انتهى أمر كثرٍ في مخيّمات أو لقوا حتفهم وهم يحاولون عبورَ البحارِ والصحاري الخطيرةِ، على أملِ الوصولِ إلى بلدان ترفضُهم أساسًا.

إنّه لأمرٌ صعبٌ أن نترك حياتَنا بأكملها وكلّ ما عرفناه وعشناه ونتحوّل لاجئين. صحيح أنّ القذائف كانت مريعةً، إلّا أنّ فكرةَ البدء بحياة جديدة انطلاقًا من لا شيء كانت لا تقلّ رعبًا وإيلامًا. وحتّى لو تمكّنا من تحقيق ذلك لوجيستيًا، فبأيّ نوع من العيش سنحظى؟ كيف لوالدكِ أن يعمل وبمَ؟ كيف لنا أن نجني المال؟ كيف لنا إقامة صداقات؟ هل ستتمكّنين من الذهاب إلى المدرسة؟ لقد جعلَتِ الحرب حياتنا بائسةً، أمّا المجهول فكان مرعبًا بالقدر ذاته.

ثمّة مثلٌ سوريّ شعبيّ: «زيوان بلادك ولا قمح الغريب». هذا ما يفسّر روابطنا الوثيقة بموطنِنا ومدى ولائنا له. كما أنّنا كنّا نحبّ منزلنا الصغير يا بانة، ذلك المنزل الذي بنيناه والدكِ وأنا وملأناه حبًّا وذكريات جمّة وأشياء مميّزة. حتّى المكيّف له قيمةٌ عاطفيّة. هل سبقَ أن رويتُ لكِ قصّة المكيّف؟ في الواقع، ما من أحد في عائلتنا كان يملك مكيّفًا. حتّى خلال فصل

الصيف، حينَ ترتفع الحرارة وتصبح حارقةً، لطالما تدبّرنا أمرنا لإبقاءِ الجوّ منعشًا؛ كان المكيّف من الكماليّات المترفة. ولكن، عندما عدنا بكِ من المستشفى إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم الحارّ من يونيو، خشيَ والدُكِ أن تعاني من الحرّ في شقّتنا وسرعانَ ما خرج من المنزل ليبتاع مكيّفًا، ثبّته في غرفتِكِ. يومذاك، ضحكْتُ من كثرةِ ما جاهدَ وصارعَ، والعرقُ يتصبّبُ منه وهو يحاول تثبيته فوق النافذة. قلتُ له أنّنا تدبرّنا أمرَنا جيّدًا حتّى الآن من دون المكيّف وأنّك ستحذين حذونا. لكنّه أصرّ. فأجابني: «أريدُ أن تكونَ طفلتُنا الصغيرةُ مرتاحةً تمامًا»، وقد نظر إليك بحنان كأنّكِ الجوهرةُ الأثمنُ في العالم. وقد كنتِ فعلًا كذلك، جوهرةً.

هذا مجرّد تفصيل صغير وربّما تافه، لكن بالنسبة إليّ، بات المكيّف رمز حبّ أبيك لكِ والدليل القاطع على أنّه يستطيع فعلَ أيّ شيء ليضمنَ سعادتَكِ وسلامتَكِ وراحتَكِ على الدوام. وثمّة أمورٌ أخرى – ثيابكِ وكتبكِ ودُماكِ والكماليّات كلّها التي ادّخرنا والدك وأنا المالَ لابتياعها. مثل جهاز التلفزيون الذي أمضينا خمسة أشهر ندّخر ثمنَه وقد استطعنا ابتياعه أخيرًا عندما فاز والدك بقضيّته المهمّة الأولى. شعرنا بأنّنا أصبحنا ناضجين حينَ ابتعنا ذلك التلفزيون! تلك مجرّد «أشياء»، أفهم ذلك جيّدًا والأشياء قابلة للاستبدال. مع ذلك، فالأشياء مهمّة يا بانة. والبيت هو حصيلة تلك الأغراض التي نجمعها بكلّ حبّ وشغفٍ، والبيت هو المكان الذي نشعر فيه بالأمان والحبّ. وهذا مهمّ. مهمّ جدًّا. أكثر من أيّ أمر آخر.

إذًا، كان خيار الرحيل أو البقاء خيارًا بينَ السيّئ والأسوإ. هذا إن كان لدينا خيار في الأساس. فقبل أن ندرك الأمر حتّى، بلغنا نقطة اللاعودة، وعلقنا في المصيدة، وبات من المستحيل المغادرة.

لا يمرّ يومٌ واحدٌ لا أفكّر فيه كم كنّا سنوفّر على أنفسنا العناء – خصوصًا كابوسَ الأسبوعين الأخيرين في سوريا – لو رحلنا. هل هي عزّة النفس ما جعلنا نبقى؟ أم الخوف؟ أم الإنكار؟ على الأرجح كلّ ذلك. لكنّ السبب الرئيس يبقى ذلك الأمل العنيد – أملٌ كان يكبر ويكبر كلّما تحسّنت الأوضاع بين الحين والآخر، ويتوقّف القصف بضعةَ أيّامٍ أو حتّى أشهرًا متتالية في بعض الأحيان، فنذوق لذّة العيش الطبيعيّ مجدّدًا.

وبما أنّنا كنّا نملك بعض المدخّرات، تمكّنّا من التكيّف مع محن الحرب على عكسِ غيرِنا من العائلات. كنّا قادرين على تخزين الطعام وابتياع مولّدٍ كهربائيّ وألواح لتوليد الطاقة الشمسيّة. بفضلِ هذه التسهيلاتِ، شعرنا بأنّنا نستطيعُ الصمود ولو كنّا جاثين، ريثما تتبدّد العاصفة وتتحسّن الأمور.

بيد أنّ القذائف كانت دومًا تعود وتعود، وكان القصف يشتدّ أكثر فأكثر، ومعه يزيد الذعر واليأس، لأنّنا تجرّأنا وسمحنا لأنفسنا ببصيص أمل، ظنًّا منّا أنّ الأمورَ ستختلفُ هذه المرّة، وأنّ

الحرب ستنتهي لا محالة. كانت الحرب تعود لتذكّرنا بأنّ أملنا هشّ كبراعم الياسمين الأولى التي تزهر في حديقتنا، وأنّه يمكن القضاء عليه بسهولة.

تشعر الأمّهات بالذنب حيالَ أمورٍ كثيرة. سترين عندما تنجبين الأولاد – لن يفارقك القلقُ بعد الآن. اليوم، أضحك حين أتذكّر الهموم التي كانت تراودني ليلًا قبل اندلاعِ الحربِ. كنتُ أقلق كلّما عطستِ أو أصابكِ سعال خفيف. هل تكثرين من تناول السكاكر؟ كم من الوقت عليّ السماح لكِ بمشاهدة التلفزيون؟ اليومَ، أعطي كلّ ما أملك لتبقى تلك أكبر همومي. أن أقلق بشأن ما تأكلين، لا بشأن عدم توفّر أيّ طعام كان لتتناوليه. أن أقلق بشأن زكام طفيف، لا بشأن احتمالِ إصابتِكِ برصاصة أو شظية.

اليومَ، ولو سمحتُ بذلك (وأحيانًا لا أستطيع الامتناع)، لاخترَقَني الذنب كالسيفِ الحادّ. هل كان في وسعي فعل المزيد لحمايتِكِ؟ هل ستصابين، وكيف أتفادى ذلك؟ هل تركت الصدمات التي عشتها بصماتِها في روحكِ؟ هل ثمّة نسختان منكِ – واحدة لو ترعرعتِ في سلام وأمان، وأخرى قولبَتها الحرب؟

من الصعب جدًّا أن أصف نير الخشية على حياتكِ كلّ لحظة وكلّ ثانية، والذي أثقل كاهلي بلا رحمة ولا هوادة. هو شعور تعرفينه تمامًا أنتِ أيضًا يا صغيرتي. فقد رأيتِ الموت والدمار في سنواتك القليلة أكثر من أيّ راشد مدى عمره. أمّا بابا وأنا فلم نستطعْ حمايتَكِ من تلك المشاهد المريعة. لقد حاولْتُ قدرَ المستطاع أن أخفي خوفي عنكِ لئلّا تنتقل عدواه إليكِ.

كما حاولْتُ قدرَ المستطاع إبقاءَ الأمورِ «طبيعيّةً» من أجلك يا بانة – حتّى أثناء تلك اللحظات العصيبة. حرصتُ طبعًا على صون سلامتِك الجسديّة، لكنّني أردتُ أيضًا صونَ سلامتك النفسيّة: أن تُدركي وتفهمي أنّه على الرغم من كلّ الفظاعة والبشاعة، الحياة جميلة. أنّنا نستطيع ابتداعَ الجمال في العالم، أو أقلّه في بيتنا وعائلتنا، ونتّخذه درعًا نحتمي بها.

حرصتُ على أن تفهمي أنّ الحرب ربّما أبرزت أسوأ ما في الناس، لكنّها أظهرت أيضًا أفضلَ ما فيهم، وجعلتنا ممتنّين لكلّ لحظة سعادة.

لن تسلَمي تمامًا يا بانة من كلّ ما رأيتِ وعشتِ، لكنّكِ ستتحلّين أيضًا بصلابةٍ روحيّة اكتسبتِها لأنّك كبرتِ في الحرب. لقد تعلّمتِ كيف تغذّين شعلة التفاؤل وحسّ المقاومة، فلولاهما لكنتِ استسلمتِ. هذا هو الدرس الأهمّ والشاقّ الذي تلقّنتِ في ربيع عمرك – ألّا تفقدي الأملَ أبدًا يا بانة، ولا تستسلمي لليأس. حتّى لو بدا أنّه الخيار الوحيد المتاح.

وإن كان من عزاءٍ فهو أنّ الدروس تلك التي تلقّنتِ خلال الحرب، زادت طبعكِ صلابةً ومنحتكِ بُعد النظر. أنا على يقين أنّ تجاربكِ، مهما جهدتُ لأجنّبكِ إيّاها، قد جعلتكِ أكثر كرمًا وامتنانًا، وأكثر مراعاةً وتسامُحًا. لأنّكِ رأيتِ الخيار البديلَ. رأيتِ الأسوأ وبذلتِ أفضلَ ما لديكِ. وهذا الأمر مهمّ يا بانة. بل إنّه الأهمّ.

صلّيتُ أن تكون طفلة

الحرب مخيفة، لأنّنا نتوقّع الأخبار السيّئة على الدوام – ما دُمّر أو مَن يهمّ بالرحيل أو مَن أصيبَ أو كلّ ما لن نستطيع ممارسته بعد الآن بسبب القذائفِ (مثل الذهاب إلى الحديقة العامّة). لكن، في بعض الأحيان، تحصل مفاجأة، ويأتي الخبرُ سارًّا! كما عندما أخبرتني ماما بأنّها ستنجب طفلًا آخر!

لقد صلّيتُ كثيرًا قبل أن يأتي محمّد إلى العالم، لأنّني كنتُ أتمنّى أن تولدَ لي شقيقة. لكنّني لم أصلِّ لأجل المولود الجديد، إذ كنتُ منشغلة في التضرُّع إلى الله ليوقف الحرب – كان سيولد لنا طفل جديد. كنتُ متحمّسة جدًّا ولكن قلقة بعض الشيء من أن يخاف المولود الجديد من القذائف. فمحمّد وأنا كنّا كبيرين بما يكفي لنهرع إلى الملجإ. لكنّ الطفل الجديدَ سيكونُ صغيرًا جدًّا. أحيانًا، لم نكن نعرف كم من الوقت سنبقى قابعين في الملجإ. تارةً، نمكث فيه بضعَ ساعاتٍ، وطورًا أيّامًا عدّة متتالية. لذا، كان علينا دائمًا ألّا ننسى جلب ما يكفي من الطعام والماء والبطّانيّات متى بدأ القصفُ. كانت ماما تحملُ على عجلٍ حقيبةً تحتوي مقتنياتِنا الثمينةِ والمصحف. أمّا أنا فكنت أحاول ألّا أنسى جلب دمية واحدة وكتاب واحد إذا استطعتُ طبعًا، وقد كان هذا كلّ ما أستطيع حمله. والآنَ، بات علينا ألّا ننسى جلب الطفل أيضًا.

قلتُ لماما كم أنا سعيدةٌ بولادة طفل جديد ووعدتُها بأن أساعدها تمامًا كما ساعدتها من قبل عندما ولد محمّد – بل وأكثر، لأنّني أصبحتُ أكبر سنًّا الآن. سألتُها ما إذا كانت تعتقد أنّ المولودَ سيخافُ من القذائف أو أنّه على العكس سيكون شجاعًا.

التمعَت عيناها وأجابت: «علينا أن نساعده ليكون شجاعًا».

«هو؟ هل هو صبيّ؟»، سألتُها. أصبتُ بالخيبة لأنّني ما زلتُ أريدُ شقيقةً. قالت ماما إنّها لا تعرفُ حقًّا ما إذا كان صبيًّا أو فتاةً وأنّها ستتركُ الأمرَ مفاجأة. لا بأس، فأنا أحبّ المفاجآت. ومع ذلك، ظللْتُ أصلّي ليكون المولودُ طفلةً، شعرها أشقر كشعر دميتي.

فيما راح بطنُ ماما يكبر وينتفخ، خفّ سقوطُ القذائف. وبقي الوضع على هذه الحال بعض الوقت – أحيانًا، قذائف كثيرة، وأحيانًا أخرى، قليلة. عندما نسمع دويّ ثلاث أو أربع قذائف تسقط بعيدًا، يكون نهارًا جيّدًا. أمّا حين نسمع دويّ عشر قذائف تسقطُ على مقربة منّا، فيكون يومًا مشؤومًا. أحيانًا، قد تأتي الأيّام الجيّدة في سلسلة متتالية إلى حدّ أنّنا ننسى الحرب. حتّى أنّنا في بعض الأحيان نستطيع الذهاب إلى الحديقة العامّة. صحيح أنّنا كنّا مرغمين على اجتياز كومة كبيرة من الركام وكانت الحديقة متّسخة ومغبّرة، إلّا أنّ الأمر كان ممتعًا على الرغم من كلّ شيء. كنّا أنا وياسمين نُخلي من بقايا الحجارةِ مساحةً مسطّحةً كافيةً لنلعبَ بحبل القفز. أو كنّا في بعض الأحيان نلعب الـX.

كانت ماما تشعر بالتعب الشديد فيما الجنين ينمو في أحشائها، لذا ضاعفتُ مساعدتي لها. كان علينا الحرصُ دومًا على تأمين ما يكفي من الماء كلّ يوم. قبل الحرب، كانت المياه تتدفّق من الصنبور، لكنّ القذائف قطعَتْ أنابيبَ المياهِ وأسلاكَ الكهرباءِ. أحيانًا، كانَ النظامُ يقطع التيّار الكهربائيّ الموصول بمضخّة المياه عندما يغضب. في بعض الأوقاتِ، كانَتِ المياهُ تنقطع فترةً طويلة، فكان علينا أن نخزّنَ

منها الكثير في الأباريقِ والغالوناتِ وأن نستعملَها بكمّيّاتٍ ضئيلةٍ مدروسة.

لم نكن نعرفُ متى تأتي المياه وكم ستدوم. أحيانًا، كان أحدُ الجيران يجوبُ الشوارعَ ويخبر الجميع بأنّ «المياه قد أتت!» حتّى لو كان ذلك في منتصف الليل، كان علينا النهوضُ لجمع المياه بما أنّنا لا نعرف متى تُقطع مجدّدًا. كنّا بابا وأنا نذهب لنملأ غالوناتِ الماءِ من الخزّانات الكبرى في الشارع. كانت ثقيلة جدًّا، ونحن نعود بها لكنّ بابا وعمّي وسام ما ينفكّان يقولان: «هيّا، نكاد نصل، تشجّعي يا بُن بُن». وعندما كنّا نبلغ مبنانا أخيرًا، كنت أشعر بذراعيّ التعبتَين المرهَقتين ترتجفان بشدّة.

أحيانًا، كنّا عندما لا نجدُ الماء على مقربة منّا، نضطرّ إلى الذهاب بالسيّارة بعيدًا للحصول عليه، فنأخذ معنا خزّانًا معدنيًّا ضخمًا لنجمعَ أكبر قدر ممكن. تأمينُ المياهِ كان بمثابة مهمّة شاقّة، ولكن لا يمكنُنا العيشُ من دونها.

ركّب بابا ألواحًا كبيرة للطاقة الشمسيّة على السطح أخذت تحوّل أشعّة الشمس كهرباء، فتسنّى له ولماما شحن هاتفيهما ولنا أنا ومحمّد مشاهدة التلفزيون، إنّما ساعة واحدة في اليوم ليس إلّا. في معظم الأيّام، كنتُ أنا مَن يختار البرنامج الذي سنشاهده، لكنّني لم أنسَ أن أترك الخيار لمحمّد أيضًا بين الحين والآخر. كان دومًا يطالب بمشاهدة الرسوم المتحرّكة «سبونج بوب» أو «سكوير بانتس» أو «توم وجيري». أمّا أنا فكنت أجد هذا النوع من البرامج سخيفًا، لكنّ محمّد هو الآخر، كان في حاجة أيضًا إلى نسيان الحرب.

«حان موعد الرحيل»

أخيرًا، حان وقت مجيء الطفل إلى الدُنيا، وقد أسعدني ذلك لأنّني سئمتُ الانتظار. لكن، كانت ثمّة مشكلة. فقوى النظام ما انفكّت تفجّر المستشفيات في شرق حلب، ولم يكن هناك مكان لولادة الطفل أو أطبّاء يساعدونه على أن يبصرَ النور. أمّا الأطبّاء القليلون جدًّا هناك فكانوا منهمكين بمساعدة المصابين نتيجةَ القصفِ. فالوضعُ ازداد سوءًا مجدّدًا.

كان بابا وماما قلقَين جدًّا. حاولا التظاهر بعكس ذلك، لكنّني كنتُ أدركُ تمامًا أنّهما قلقان، لأنّ ماما غالبًا ما كانت شاردة الذهن وتلتزم الصمت التامّ أحيانًا. هناك أطفالٌ كانوا يولَدون مرضى بسبب الحرب. كان من المفترض أن يكون لي ابن عمّ صغير جديد، لكنّه لم يبصر النور لأنّه كان بلا عظامٍ. الطعامُ كانَ قليلًا، وقد ملأ الجوَّ الغبارُ والموادُّ الكيماويّة الضارّة، حتّى بتنا نشتَمّ رائحة معادنَ وزيتٍ محروق بشكل مستمرّ.

من جهة أخرى، الخوف يضرّ بالجنين ويعيق نموّه. لهذا، أوصتنا ماما بالحفاظ على الهدوء والسرور أثناء نموّ الطفل في أحشائها. كنّا نقرأ لبطن الماما. رحتُ أقرأ كتبًا فكّرتُ في أنّها قد تُعجب الطفل، مثل الثعلب الطمّاع، فيما كانت ماما تتلو عليه القرآن. فقد أردنا أن يأتي المولود إلى العالم، وهو يبتسمُ مثلي أنا وأن يُدرِك أنّ الله يحبّه (أو يحبّها!).

لكن، الآنَ وقد عادتِ القذائفُ تنهمرُ بشدّة، قلقتُ متسائلةً في أيّ حالة سيولد الطفل؟!

وذات يوم، كان بطنُ ماما قد انتفخ إلى حدّ أنّها باتت شبهَ عاجزة عن التحرُّك، أصابت شظايا إحدى القذائفِ مبنى نانا سمر وجدّي مالِك في شارعنا. كنّا في الملجإ لأنّ القصفَ كان قريبًا، وعندما صعدنا مجدّدًا إلى طبقتنا، خفّنا كثيرًا. فلحظة الخروج من الملجإ، لا أحدَ يعلم مَن توفّي أو ما دُمّر.

هذه المرّة، كان الوضعُ خطيرًا. كان مبنى جدّي مؤلّفًا من طبقتين؛ جدّاي يقيمان في الطبقة الأرضيّة، ورجل لطيف يدعى عبده يقيمُ في الطبق العلويّة مع أسرته، لقاء بدلٍ ماليّ يدفعه لجدّي. وقد أصابت شظايا القذيفة عبده بجروحٍ بالغةٍ. وقال جدّي إنّها ربّما كانت ستصيبه أو تصيب نانا أو أيًّا من خالاتي وأخوالي الذين يعيشون هناك.

جلس جدّي في غرفةِ الجلوسِ وعانق نانا التي كانت تبكي، ثمّ قال: «لا يمكنُنا الاستمرارُ على هذا النحو».

كان الجميع في غاية الجدّيّة، فرحْتُ أفكّر في طريقة لأُضحكَهم وأروّح عنهم. ثمّ قال جدّي: «حان موعدُ الرحيل. يمكنُنا توضيب أمتعتنا غدًا وتسوية أمورِنا كلّها والمغادرة مع أولى ساعاتِ صباح اليوم التالي».

نسيتُ نيّتي إضحاك الجميع، وانقلبت معدتي رأسًا على عقب.

تمدّدتُ قربَ جدّي على الأريكة، مسندةً رأسي إلى حضنه. «أرجوكم، لا ترحلوا»، قلتُ له. اكتفى جدّي بمداعبة شعري.

«سوف نرحل إلى تركيا، يا بُن بُن. فترة وجيزة فحسب. إلى أن تتحسّن الأوضاع هنا».

رفع نظرَه إلى ماما وبابا. «عليكم الرحيلُ أيضًا. البقاءُ هنا لم يعُد آمنًا. فالوضعُ يتفاقم سوءًا أكثر فأكثر».

انقلبَت معدتي مجدّدًا، فأنا لا أريد مغادرةَ سوريا.

التزم بابا وماما الصمتَ. وأدركتُ أنّهما لا يريدان الرحيل هما أيضًا. لكن، إن رحل الجميع فلن يعود البقاءُ ممتعًا. كما من المفترض أن تساعدَني نانا سمر لأساعدَ ماما في الاهتمامِ بالطفل. ولكن، إن رحلا فلن يتمكّنَ جدّاي من التعرُّف إليه حتّى! لحسن الحظّ أنّ جدّيّ العابد لا يزالان هنا ليقدّما المساعدةَ.

بقيت ماما في البيت لتستريحَ، وذهبْنا نحن لمساعدة نانا وجدّي في توضيبِ ما توفّر من أمتعة. جمعْنا ما استطعنا من بين ركام الأرضيّات والجدرانِ. لم أكن أستحمّ كثيرًا لتوفير الماء، لكنّني استحمَمْتُ تلك الليلة، لأنّ الغبار كان يكسوني.

سهر بابا وماما حتّى ساعةٍ متأخّرة من الليل، يتحدّثان. كان يفترض بي أن أنام، لكنّني كنتُ أسمع نبرتيهما الجدّيّتين. لم أستطعِ النومَ، فقد أدركتُ أنّنا سنودّع في اليوم التالي نانا وجدّي، وخشيتُ ألّا أتمكّن من رؤيتهما مجدّدًا.

«لا تبكي يا بُن بُن، أراكِ عمّا قريب»

في الصباح الباكر، استُؤنفَ القصف. كنّا نصحو كلّ صباح على صفير القذائف بدلَ زقزقةِ العصافير.

ركضنا إلى الملجإ. لكن، بما أنّ بطن ماما كان كبيرًا ومنتفخًا جدًّا بسبب الطفل، لم تستطع مجاراة خطواتِنا السريعةَ، وقد قلقتُ كثيرًا بهذا الشأن. قبل أن نبلغ الملجأ، سمعنا صوت تحطُّم قويًّا. كان الزجاج يتكسّرُ، متطايرًا في كلّ صوب. لم نتوقّف حتّى لنرى أين أو كيف أو ماذا، بل تابعنا الهرولة نزولًا.

لكنّ ماما كانت ترتجف بشدّة. بدت متعَبَة جدًّا وشاحبةً. تمدَّدَت إلى جانب بابا على الأرض وأجهشَت بالبكاءِ. ما كانت ماما تبكي غالبًا، لكن حين كانت تفعلُ، كنت أحذو حذوها تلقائيًّا، وكأنّما دموعُنا واحدةٌ. أسوأ شعورٍ في العالم هو حينَ تحزنُ ماما. أرحتُ رأسي على بطنها ورحتُ أصغي إلى الطفل يتحرّك ويركل. وهذا ما هدّأ روعي.

عندما توقّف القصفُ، صعدْنا إلى البيت لنجدَ نوافذَ غرفة الجلوسِ قد تداعت وتهشّمَت من جديد. تساعدنا جميعًا في لملمة شظايا الزجاج عن الأرض. كانت تلك المرّة الخامسة التي يتكرّر فيها هذا؛ لم يعد في وسعنا تأمين زجاج بديل، لذا وضع بابا النيلون لتغطية فتحاتِ النوافذ.

ثمّ جاء جدّي ونانا في وقت لاحق تلك الليلةَ للوداع. لكنّه لن يكون وداعًا في أيّ حال، لأنّ ماما وبابا فكّرا في أمرٍ. فقد قرّرت ماما أنّ البقاء في سوريا وإنجاب الطفل هنا في غاية الخطورة. لذا، سنذهب أنا وهي ومحمّد برفقة نانا وجدّي كما خالتي نورهان وخالي صالح ووالدة جدّي إلى تركيا.

كان ذلك الخبرُ سارًّا من جهة، لأنّني لن أضطرّ إلى توديعهما، وسيئًا من الجهة الأخرى، لأنّ بابا لن يرافقنا. فهو ينوي البقاء وحماية المنزل، للحؤول دون مجيء مَن يسلب أغراضنا، ظنًّا أنّنا غادرنا نهائيًّا ولن نعود. كان مقتنعًا بأنّنا سنعود من تركيا قريبًا لأنّ الحرب ستنحسر. وفي هذه الأثناء، أراد البقاء لمساعدة الناس. علاوةً على ذلك، لم يكن يملك جوازَ سفرٍ يخوّله دخول تركيا.

رحّب جدّي ونانا بفكرة مرافقتهما، لكنّهما لا يملكان سوى سيّارة واحدة لتقلّنا نحن وأمتعتهما معًا. لم يكن جدّي واثقًا في أنّ السيّارة قد تتّسع لأولادهما وأحفادهما كلّهم – فقد كنّا ثمانية أشخاص – بدا أنّه يعاني صداعًا أليمًا وهو يقول لنا ذلك، لكنّه أردف أنّه سيجد حلًّا.

لم أكنْ أعرفُ ما أريد. هل من الأفضل أن تتّسع السيّارة للجميعِ أم لا؟ من الأفضل أن نترك الأمرَ لله بهذا الشأن.

في الصباح، أتى خالي صالح وأخبرنا بأنّ السيّارة تتّسع للجميعِ، وعلينا أن نكونَ مستعدّين للرحيل بعد نصفِ ساعةٍ. إذًا، علينا أن نوضّب أمتعتَنا سريعًا – لكنّنا لا نستطيع حملَ أيّ شيء إضافيّ، ولا حتّى دميةٌ واحدة من دُماي. وقد قالت ماما إنّنا نستطيعُ شراءَ بعض الملابس والبيجامات من تركيا.

حزنْتُ لأنّني لم أستطع جلب دُماي، لكنّني مَن أردتُ اصطحابَه أكثر كان بابا.

كان أشخاص وأغراض كثرٌ في السيّارة؛ كانت ضيّقة إلى درجة أنّنا كنّا مسحوقين معًا، الواحد على الآخر، ولم يكن في وسعنا القيام

بأيّ حركة. إذًا، ما كان بابا ليجد مكانًا له في السيّارة في أيّ حال، لكنّني فكّرتُ في أنّنا ربّما نستطيع إيجاد سيّارة أخرى أو نرمي بأمتعة غير ضروريّة – أو غيرها ليتمكّن بابا من مرافقتنا. عندذاك، نستطيعُ أن نشرحَ للأمن عندَ الحدود أنّ بابا لا يملكُ جوازَ سفرٍ، وربّما يُسمَحُ لنا بالعبور كونَنا عائلةً واحدة.

لكنّ بابا قال: «كلّا يا بانة، عليّ البقاء هنا. أراكِ عمّا قريب». رفعَني عنِ الأرض وكانَت تفوحُ منه رائحةُ العطرِ الذي اعتادَ استعمالَه، هو مزيج من الصابون وأريج الشجر. تفكيري في أنّني لن أشمّ تلك الرائحة من جديد جعلَني أجهش بالبكاء. وقد بكيت، بكيت كثيرًا هذه المرّة. لم أستطع الامتناع عن ذلك.

«لا تبكي يا بُن بُن». لكن، من الصعب التوقّف عن البكاء حتّى لو أردنا. كان محمّد يبكي أيضًا. ثمّ قال جدّي علينا الرحيل لأنّ طريقَنا ستكون محفوفة بالمخاطر، وقد أراد الذهاب قبل مجيء الطّائرات.

ودّعَ بعضُنا بعضًا. استمرّ بابا يلوّح بيده واستمررتُ أبكي. بكيتُ إلى أن غلبني النعاسُ. حين صحوتُ كان الليلُ قد هبط، وكنّا قد وصلْنا إلى تركيا.

لم يكُن ينقصنا إلّا بابا

كم اشتقتُ إلى بابا! فأنا لم أمضِ ليلةً واحدة بعيدة منه، ما خلا تلك الليلة التي أخذه فيها رجال المخابرات. كنّا نقيم في بيت استأجرناه، لكنّه لم يكنْ كالمنزلِ، وقد بدا فارغًا بسبب غياب بابا عنه. كنتُ أخشى أن يحلَّ به أيّ سوء فيما هو بعيد منّا. مع ذلك، كنْتُ أتحدّث إليه كلّ يوم، وأسأله دائمًا متى سيأتي إلينا. «قريبًا، يا بانة، قريبًا»، كان يجيب. عندذاك، كنْت أذكّره بأنّ يجلب دُماي عندما يأتي. وقد وعدَني بأن يجلبها.

بعد مضيّ بضعة أسابيع من رحيلنا، قرّرَ جدّاي العابد مغادرةَ سوريا أيضًا – بالتالي، لم يعدْ لبابا وإخوته أقرباءٌ هناك. انتقلَ جدّاي إلى مدينة مختلفة في تركيا، على مسافة بضع ساعات في السيّارة من مكان إقامتِنا. كنْتُ حزينةً، إذ لم تتسنّ لي فرصة توديعهما ولم أعرف متى قد أراهما مجدّدًا. لم يعجبني أن يعيشَ الآنَ كلّ واحد منّا في مكان مختلف. فالعائلة يجب أن تبقى مجموعة لا مشتّتة، بعضها هنا وبعضها هناك.

وجدَت ماما طبيبًا لطيفًا في أحد مستشفيات تركيا. لكنّه أطلعها على أمرٍ مخيف: سيكونُ الطفلُ مريضًا إن ولد الآن، لذا عليها أن تتناول الأدوية لتبقيه في أحشائِها ريثما يكتمل نموُّه. قلقنا جميعًا، خصوصًا ماما. كانت تمرّر يدَها على بطنِها وتكلّمُ الطفلَ طوالَ

الوقتِ: «ستكون على ما يرام. أرجوك كُن بخير»، كنتُ أسمعها تهمس له.

بعد أسبوعين، قال الطبيب إنّ وقتَ ولادةِ الطفل قد حان. أخبرتني ماما كيف سيحدث الطبيب شقًّا صغيرًا في بطنِها ليُخرجَ الطفلَ، وأنّ ذلك لن يكون مؤلمًا. فبهذا الشكل، قد أبصرنا النور أنا ومحمّد.

لم أستطع أن أكون حاضرة حين أخرج الطبيب الطفل، لأنّه غير مسموح، لكنّ نانا وجدّي اصطحباني إلى المستشفى لأرى ماما في اليوم التالي. بدَت ماما مريضة بعض الشيء لكنّها كانت تبتسمُ. كانت تمسك ببطّانيّة كأنّها ملفوفة حولَ رغيف خبز. لكنّه لم يكن خبزًا – بل كان الطفل.

مفاجأة: كان صبيًّا! مرّة أخرى.

كان صغيرًا ومتجعّد البشرة. كان يبدو كفرخِ الدجاج لكن من دونِ ريشٍ. مع ذلك، كانت رائحته كالخبز الطازج. وعلى الرغم من أنّه لم يكن فتاةً، فقد كان أشقر الشعر، مثلما دعَوتُ في صلاتي. لقد أحببته حينَ كان في بطن ماما، لكنّني أحببته أكثر الآن وقد بات بيننا.

سمحوا لنا بحمله بضعَ دقائق فحسب لأنّه كان صغيرًا وضعيفًا، على الأرجح بسببِ الحرب. قالت ماما إنّ حجمَه يساوي نصف حجمي عندَ ولادتي. في المستشفى، فضّلوا وضعه تحت لمبة لإبقائه دافئًا ومساعدته في النموّ.

كانت ماما ضعيفة هي أيضًا. بدَت مُتعَبَة ورماديّة اللون بعض الشيء. لم يكن لديها ما يكفي من الدم في جسمها. لذا، وجب عليها ملازمةُ المستشفى. ثمّ كان علينا تركُها تستريح معظم الوقت، لكنّهم سمحوا لي بتمضية بضع ساعات معها كلّ يوم. كنتُ أصعد إلى سريرها في المستشفى فنحتضن أنا وهي الطفل ونداعبُه معًا. لم يكن ينقصنا إلّا بابا.

اسمه نور

ظننتُ أنّنا سنبقى في تركيا وقتًا قصيرًا، لكنّنا مكثنا هناك فترة طويلة، لأنّ ماما كانت مريضةً ومتعبةً على الدوام. كانت في حاجة ماسّة إلى نانا، وكان عليها أن تستعيد قواها. فكّرتُ في أنّها ستتعافى بشكل أسرع لو رأت بابا. فقد اشتاقَت إليه بقدر ما كنتُ أنا مُشتاقة إليه.

قلتُ لماما أنّني مشتاقة إلى بابا وإلى غرفتي ومكتبي وكُتُبي. كنتُ أريد العودة إلى المنزل. وكانت تُجيبني بأنّها اشتاقت هي أيضًا إلى بيتنا. «نحن نعاني من الحنين إلى الوطن يا بانة»، قالت لي ذات مرّة. هذا الشعور الذي يولَد حين نعاني من الحزن لأنّنا بعيدون من المكان الذي نُحبّ ونودّ العيش فيه.

بعد شهرين، جاء بابا في زيارة إلى تركيا. كانت مجازفة خطرةً، إذ اضطرَّ إلى الخروج من حلب والتسلُّل عبر الحدود، بما أنّه لا يملك جوازَ سفر. عندما وصل، جاء جدّاي العابد أيضًا من مكان إقامتهما في تركيا. وكذلك عمّي نزار. فقد قبع في المستشفى في تركيا مدّةً طويلة بعدما أُصيبت سيّارتُه بقذيفة. وقد تشظّى الزجاج الأماميّ كلّه على وجهه. والآن بات مظهره مُخيفًا نوعًا ما فهو لم يعُد لديه أنف ولا عينان.

بالتالي، لم يعُد في وسعه رؤيتي ليعرف كم كبرتُ مُذ رآني المرّة الأخيرة، لكنّني أخبرته بنفسي أنّني أصبحتُ طويلة القامة الآن.

مع ذلك، فَرِحنا جميعًا برؤية بابا وبرؤية بعضنا بعضًا! لن يسعكم تخيُّل هذا الشعور – كأنّكم تبتسمون بشدّة إلى درجة تؤلمكم عضلات وجوهكم، فتشعرون بأجسامكم تتنمَّل كأنّ آلاف الفراشات قد غزتها في آن واحد، إلى هذه الدرجة يجتاحُكم الفرح. حتّى نزار كان متحمّسًا مغتبطًا؛ على الرغم من أنّه لم يعُد يرانا في الواقع، كان سعيدًا لأنّ شملنا قد التأمّ ولم يعُد هو مرغمًا على ملازمة المستشفى.

بعد وابل القبل والعناق الذي انهمر على بابا، انحنى ليحمل أخي الرضيع، ورفعه إلى مستوى وجهه حتّى تلامست بشرتهما، ارتسمَت على شفتيه أكبر ابتسامة. حين أصبح الواحد في محاذاة الآخر، ظهر الشبه بينهما جليًّا؛ نسخة طبق الأصل.

«تَشَرَّفنا، يا نور»، قال بابا بنبرة هادئة.

نور. هكذا سمّيناه.

وقالت ماما إنّه شعلة النور في حياتنا، في وقت نحن في أمسّ الحاجة إليها.

كان من المفترض أن ينبئني الإرهاقُ الشديد الذي اكتسحني بأنني حامل. لكنني كنتُ مرهقةً منذ فترة طويلة، وعلى شفير الانهيارِ نتيجة القصف المتواصلِ، إلى حدّ جعلني أفقد قدرتي على الشعورِ بجسدي أو الإصغاء إلى مؤشّراته. جسدي في زمنِ الحربِ استحالَ كومةَ أعصاب مستنفَدَة في غليان بسبب الأدرينالين.

وقد عانيتُ الأمرّين لأحمل بكِ ثمّ بمحمّد، مرورًا بعلاجات وجراحات عدّة، فلم يخطر لي حتّى أنّه من الممكن أن أحملَ مجدّدًا. إضافةً إلى ذلك، كنتُ أحاول جاهدةً إبقاء ولديّ على قيد الحياةِ، لذا كان من غير المعقول أو التافه حتّى أن أفكّر في طفل جديد. ومع ذلك، هذا ما حصل. لقد حملتُ.

آنذاك، كانَتِ الحربُ مستعرّةً في حلب منذ عام تقريبًا، وكانت نار الخوف والشكّ والحيرة تلتهمنا رويدًا رويدًا. لذا، وعوضًا عن أن يكون الخبر سارًّا مثلَ خبر الحمل بك وبمحمّد، فقد نزل عليّ كصاعقة باردة من الهلع والذعر.

كيف سنطعم الطفلَ؟ كيف وأين سألده بما أنّني لا أستطيع الذهاب إلى المستشفى في غرب حلب حيثُ ولدتِ أنتِ، وبما أنّ مستشفياتٍ كثيرة شرق حلب قد دُمّرَت، بما فيها المستشفى الذي وُلد فيه محمّد؟ كما أنّني عانيتُ الكثير خلال حمليّ الأوّل والثاني، وأيضًا خلال الولادتين ومن ثمّ مرحلة النقاهة. فكيف سأتدبّر أمري من دون عناية طبّيّة؟

حتّى لو استطعتُ بشكل أو بآخر أن ألدَ بالسلامة والصحّة، فكيف سنربّي الطفل؟ لم يكن لدينا سوى القليل من الموارد واليسير من المياه الصالحة للاستهلاك. وقد رُحنا نسمع أكثرَ فأكثرَ عن أطفال يولَدون بعاهات وتشوُّهات خُلقيّة نتيجة المواد الكيماويّة السامّة التي تخلّفها القذائف، أو عن آخرين مولودين قبل الأوان ومصابين بأمراض بسبب نقص الغذاء ولأنّ أجسام أمّهاتهم قد تأكّلها الخوف المتزايد والتوتُّر.

كان ضربًا من الجنون أن نأتي بروح جديدة إلى عالم منكوب ومفجوع من كثرة الموت. كان من سابع المستحيلات.

كدنا أبوك وأنا نموتُ من شدّة التفكير في ما يجب فعله في هذه الحال. في ذروة يأسنا وفي ساعة شؤم، خطر في بالنا أن نجد وسيلةً لإنهاء الحمل. مجرّد التفكير في هذا الحلّ كان فظيعًا،

لكنّنا كنّا حقًّا على هذا القدر من اليأس. حاولنا التواصل مع صديقتي أسمى التي كانت ممرّضة، علّنا نجد مَن يساعدنا. لكن في النهاية، لم أستطع الإقدام على هذه الخطوة.

في الحقيقة، أن أحمل كان بحدّ ذاته معجزة. وكنتُ أريد طفلًا. بغضّ النظر عن الحرب، هذا ما كنتُ أريدُ، بكلّ بساطة. وكان في وسعي تخيُّل ذلك الصبيّ الصغير – فقد عرفتُ في قُرارة نفسي أنّه صبيّ – تمامًا كما تخيّلتُكِ سابقًا وبوضوح يا بانة.

كنتُ أمّه قبل أن يبصر النور. وكانت الحرب قد سلبَتنا الكثير، فما كنتُ لأدعها – بل رفضتُ أن أدعها – تسرق منّا طفلنا. ولئن أدركتُ تمام الإدراك أنّنا سنكون منذ اللحظةِ هذه تحتَ رحمةِ سيف الموت، فقد كنت مقتنعة بأنّ هذا الطفل يستحقّ فرصةَ الحياة.

إذًا، اتّخذنا القرار. مع ذلك، لا أستطيع القول أنّ الأمرَ سرّني حقًّا، إلى أن أخبرتُكِ به. هل تذكرين؟ صفّقتِ وصحتِ فرحًا. «طفل، لي أنا؟»، قد قلتِ. «حسنًا، لنا جميعًا»، شرحتُ لكِ.

حينذاك فحسب، سمحتُ لنفسي بالقليل من السعادة والحماسة. أن أشاركَكِ فرحَكِ خوّلَني أن أفرح أيضًا وأن أتناسى – أقلّه موقّتًا – كلّ خوف وقلق.

حين كنتُ حاملًا بكِ ثمّ بمحمّد، اعتدتُ الخضوع لفحوصات دوريّة طوال الوقت، وكنتُ أتنفّس الصعداء كلّما أدركتُ أنّ أصابع الأيدي والأقدام الصغيرة والرئات في طور النموّ وأنّكما في صحّة جيّدة. أمّا مع سمر، فلم تكن العناية الطبّيّةُ متوفّرة، وهذا ما كان يُرعبني. بما أنّ أسمى كانت ممرّضة فقد كان في وسعها في بعض الأحيان استخدام آلة التصوير الصوتيّ وقد أخضعتني لها مرّتين. أتيتِ أنتِ معي آنذاك وقد أذهلكِ أن ترَي الجنين في الشاشة وتسمعي دقّات قلبه. كنتِ تحملين الصورة الصوتيّة معكِ أينما ذهبتِ وترينها لأفرادِ العائلة. «انظروا، هذا هو الطفلُ في بطن ماما!»، كنتِ تردّدين بإعجاب وزهوٍ!

كم كان لديكِ من مشاريع وأحلام للطفل – بدايةً، أنّه سيكون أشقر. وقد فكّرتُ حينذاك في أنّكِ تبالغين بما أنّ شعورنا جميعًا داكنة، لكنّ أمنيتكِ تحقّقت وحصلتِ على مطلبكِ.

أحيانًا، عند اشتداد القصف، كنّا نجلس في الملجإ وكنتِ تخبرينني بكلّ ما تنوين أن تعلّميه من أمور وما تُريه من أشياء. كم بدا الوضع غريبًا! نحن، قابعون هنا نرتجف خوفًا كالأرانب تحت وابل القذائف، جاهلين ما قد يخبّئه لنا الليل المقبل أو النهار التالي، وأنتِ تنشدين الأغاني وتُحيكين الحكايات الجميلة حول مستقبل أكثر إشراقًا من نار أيّ قنبلة حارقة.

حتّى ونحن نُصغي إلى أحلامكِ الطموحة، كانَ هدفُنا الأوّل والأكثر إلحاحًا أن نُبقي الجميع على قيد الحياة. تلك هي طبيعة الحرب – نخطّط للمستقبل بالعزم والإلحاح عينهما كما لو كنّا نتهيّأ لاحتمال خسارة مستقبلنا من الأساس.

لقد اكتملَت أشهر حملي الأخيرة خلال مرحلة هدوء نسبيّ في حلب – كأنّما رفعتُ الدعاء والتضرّعات الحارّة ليتمّ ذلك، فيأتي الطفل إلى الحياة بهدوء وسلام. لكن في تطوّر مفاجئ

وقاسٍ وفظيعٍ للأمور، حملَتِ الأسابيع السابقة موعدَ الولادة، موجةٌ من القصف المكثّف العنيف، كأنّ الحربَ تستهزئ بي وبأمنياتي.

ذات ليلة، سكنني هاجس نذير غريب بأنّني سأموت وأنا أضع الطفل لو اضطررتُ إلى إنجابه في شقّتنا، حتّى وإن كانت خيارًا أفضل من المستشفيات بما أنّها بالكاد تعمل بل ويستهدفها القصف على الدوام.

وشهدت تلك الليلة بالذات أعنف وأشدّ قصف عرفناه منذ أشهر. ذعرتُ مجرّد التفكير في أنّني قد أدخل مخاضي في الملجإ. عادةً، كنّا نحاول القراءة والغناء، لكن في تلك الليلة لم أستطع أن أفعل أكثر من الدعاء وأخذ أنفاس قصيرة وغير عميقة، محاولةً طرد الألمِ والهلعِ.

في الصباح التالي، حالما هدأ القصف، صعدنا إلى المنزل، جفلين مرتجفين تحت نور رماديّ شاحب.

بما أنّ القذائف كانَت قريبة جدًا هذه المرّة، فقد خشينا مسح الأضرار – ذلك الطقس المحبط للمعنويّات. وسرعان ما علمنا أنّ بيت جدّيكِ قد دمّر، وأنّ عبده أصيب إصابةً بالغة. بالنسبة إلى أهلي أنا الذين كانوا أساسًا يستعدّون للرحيل، كان ذلك بمثابة القشّة التي قصمت ظهرَ البعيرِ. لقد استنفدوا جميع الخيارات فيما أرهقهم الشعورُ بأنّهم أهدافٌ – طرائدُ على الدوام. كنتُ أتفهّم رغبتهم في الرحيل، ومع ذلك رحتُ أبكي وأشكو. ما قيمة البيت من دون أهل؟ كنتُ راشدة أجل؛ عمري خمس وعشرون سنة ولديّ زوج وولدان وطفل آخر سيولد قريبًا، لكن مهما كبرنا فنحن في حاجة دومًا إلى أمّنا، يا بانة.

قرّر أهلي الرحيل في اليوم التالي والتوجُّه إلى أورفا، بلدة في تركيا، على حدود سوريا. كنّا غسّان وأنا قد تناقشنا مرارًا وتكرارًا، بل وأثقلنا كاهلينا بالخيارات المُتاحة، فقرّرنا أنّ عليّ مرافقة أهلي إذا استطعت. من المستحيل أن أنجبَ الطفلَ في سوريا – فقد بقي هاجس وفاةِ الطفل أو وفاتي أو وفاة كلينا معًا يقضّ مضجعي. لكنّ مجرّد التفكير في أنّني سأترك والدَكِ وأعيشُ من دونه في تركيا، كان يُغرقني بالخوفِ والعزلةِ. ففي النهايةِ، غسّان صخرتي ومصدرُ قوّتي. والدكِ رجلٌ مُذهلٌ – قويّ وشامخ. ما كنتُ لأتخيّل العيشَ من دونه.

إذًا، مجدّدًا كنّا أمامَ شرّين: البقاء أو الرحيل. في نهاية المطاف، أنبأني حدسي بأنّه عليّ المغادرة – لم يكنْ لديّ خيار آخر. وحتّى اليوم، أؤمن من عمق أعماقي بأنّني كنتُ سأموت لو اخترتُ البقاء هناك. نظرًا إلى ثقلِ مرضي بعد ولادة الطفل، وإلى كمّيّة الدم التي خسرتُ، فلولا حصولي على العناية الطبّيّة المناسبة، لانتهت القصّة بشكلٍ مختلف كليًا. مع ذلك، فقد كان تركُ سوريا وأبيكِ ذلك اليوم، أقسى وأصعبَ ما قمتُ به في حياتي.

هل تذكرين كم بكيتِ يا بانة؟ لم أرَكِ يومًا تبكين بهذا القدر. كنتِ ترفضين أن أتركَكِ، وكيف لي أن أفعل؟ لكنّك رفضتِ أن تتركي أباكِ أيضًا. أن تنشقّ عائلتُنا هكذا كان بمثابة أشدّ أنواع

التعذيب لنا. مضت ساعاتٌ عدّة قبل أن تهدئي وتستسلمي للنعاس بعد طول إجهاد وبكاء في حضني. كم كنتُ سعيدةً لوجودكِ معي يا صغيرتي! لقد منحتِني القوّةَ التي كنتُ أحتاجُ إليها أكثرَ من أيّ يومٍ مضى. أن أنجِبَ طفلي في بلد غريبٍ وفي غيابِ والدكِ كانَ من أكثر التجارب التي عشتُها في حياتي عزلةً وغربةً. لكنّ الطفلَ أتى، في كامل الصحّة إنّما أصغر حجمًا بكثير منكِ ومن محمّد عند ولادتكما. كان يبدو تمامًا كما تخيّلتِه أنتِ: صبيًّا صغيرًا فاتح البشرة، مع قُنبرة غريبةٍ من الشعرِ الأشقرِ الحريري. حينَ شعرتُ بدفئِه على صدري أوّل مرّة، تلاشى كلّ شيء آخر: القذائف، والخسارة، واليأس، والخوف الذي بات جزءًا منّي، ليحلّ مكانها شعورٌ بالهدوء والسكون لم أختبره قطّ منذ أعوام عدّة. عندذاك، اختُصر العالم كلّه في نبضاتِ قلبِه تحاكي قلبي، قوّة تُهدّئ وتُثبّت.

في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّني... قويّةٌ ومحصّنةٌ، شعرتُ بأنّني لا أُقهر.

لقد جلبتُ الجمال والحياة إلى العالمِ، وهذه القوّةُ تفوق قوى المدافع والرشّاشات والقذائف والشرّ مجموعةً. إنّها المعادلةُ الحسابيّةُ الأبسطُ في الكونِ: الحياة هي الترياق المضادّ للموت، كما النور هو الترياق المضادّ للظلام.

كان الطفل أخوك شعاعَ نور في عمقِ الظلمةِ، فسمّيناه نور. أتت ولادته كإشارةٍ من السماء بأنّ العالم قد يكونُ أو سيكون أفضلَ، فمنحَتني الأملَ بأنّ بلادي وعلى الرغم من المعطيات، ستكونُ قادرة على حماية هشاشةِ حياته، وبأنّ ولادتَه ستكون شهادة ونذيرًا لبشريّة جديدة، وبما أنّ حياتَه انطلاقة جديدة، فسوف نحظى بانطلاقة جديدة مُشابهة في حلب. وهذا فعلًا ما بدا لنا بعضَ الوقت. فقد أخبَرَنا بابا بأنّ الأمورَ إلى تحسُّن في سوريا؛ منذ أشهرٍ والأوضاع أكثر هدوءًا؛ والحياة أخذَت تعود إلى مجراها الطبيعيّ في ما يبدو. لقد وجدَ بابا وظيفة جديدة. لذا، بعد خمسةِ أشهر من النزوحِ، شعرتُ بأنّني استعدتُ قواي وبأنّ الوقت قد حان للعودةِ إلى الديار. كنّا مقتنعين بأنّ يومًا جديدًا مُشرقًا ينتظرُنا.

آه يا بانة كم كنّا مُخطئين!

حين يجتاحكَ الحنين إلى الوطن
لن تشعر بتحسُّن إلّا بالعودة إليه

قرّرنا العودة إلى سوريا. كان بابا قد أخبَرَنا بأنّ الأوضاع إلى تحسُّن في حلب – في الآونة الأخيرة، تراجعت حدّة القصفِ. حتّى أنّه عاد إلى عمله. قال إنّ علينا العودة إلى المنزل، وكان ذلك خبرًا سارًّا لي ولماما.

لكنّ نانا وجدّي لم يفرحا عندما أخبرناهما بأنّنا ننوي العودةَ إلى حلب. بل واجهانا بنبرات غاضبة. قال جدّي: «هذا جنون، يا فاطمة. لديكِ طفل صغير الآن. أنتم في مأمن هنا. أمّا العودة فبمثابة انتحار».

أجابت ماما بأنّ بابا حظيَ بوظيفة مجدّدًا، وإذا ما أتى إلى تركيا فسيكون عاطلًا من العمل. ثمّ عادت وذكَّرَتهما بأنّ الأوضاع قد تحسَّنت هناك ووعدتهما بأنّها إذا ما تفاقمت ثانيةً، فسوف نوضّب أمتعتنا ونعود على الفور. لكن، علينا العودة إلى حلب وفق ما قالت – وإن للإتيان بمقتنياتنا. لا نستطيع ترك كلّ شيء هناك.

وأنا وافقتها الرأي، فقد كنتُ في حاجة إلى دُماي، وكتبي، والصور التي رسمتُها وكلّ شيء. أيضًا، لم تتسنّ لي الفرصة لأودّع ياسمين وأصدقائي الآخرين قبل المجيء إلى تركيا. لكنّني لم أشأ أن أقولَ لهم وداعًا. فقد أخبرتُ جدّي بأنّني أريدُ العودة إلى سوريا نهائيًا.

تنهّدَ تنهيدةً طويلة، وقال لي: «أعرف يا بانة. لكنّنا نريدُ أن تبقي هنا بمأمن».

جزء صغير منّي كان يريد البقاءَ أيضًا، فقد كنتُ متوتِّرة بعض الشيء من فكرة العودة إلى حلب، وإلى القذائف. لكنّني كنتُ متحمِّسة أكثر للعودة، فحين يجتاحكَ الحنين إلى الوطن، لن تشعر بتحسُّن إلّا بالعودة إليه.

وهذا ما فعلناه. عُدنا.

لم أشأ أن يشعر شقيقي الصغير بالخوف مرّة واحدة في حياته

كان بابا مُحقًّا، الأوضاعُ تحسّنت بالفعل. كأنّ الحرب انتهت وعادت الحياة طبيعيّة – على الرغم من أنّني أنسى أحيانًا كيف تكون الحياة العاديّة الطبيعيّة، فقد مرّ زمن طويل على ذلك. كان نور قد كبر بعض الشيء وبدأ يدبّ ثمّ يمشي، وما عدنا نسمع القذائف نوعًا ما. عادت الأمور تقريبًا كما كانت عليه وأنا طفلة صغيرة. ومع ذلك، كانت هناك مخلّفات تعيدُ تذكيرنا بالأوقات العصيبة. لم يُرمّموا المباني المهدَّمة كلّها، ولم تكن المياه ولا الكهرباء تزورنا إلّا مرّتين أو ثلاثًا في الأسبوع، لكنّني لم أعد خائفة مذعورةً طوال الوقت، ووجدتُ ذلك جميلًا. رحتُ أفكّر في أنّ نور محظوظ على الأرجح – ربّما لن يعرف يومًا القذائف والرصاص ولا المعارك. فأنا لم أشأ أن يشعرَ شقيقي الصغير بالخوفِ مرّةً واحدة في حياته. كان مجرَّد طفلٍ.

إضافةً إلى ذلك، إذا ما بقيت الحرب بعيدة منّا، فربّما يتمكّن نور من تعلُّم السباحة مثلي، مع أنّ مسبَح الربيع قد دُمّر بقذيفةٍ. وجب أن يُبنى مسبحٌ آخر. أو حين يكبر نور أكثر قد نصطحبه إلى السوق لابتياع الجيلي. على الرغم من أنّ متاجر كثيرة ما زالت مقفلَة. أمّا تلك المفتوحة فغالبًا ما لم يكن لديها مطلبنا.

ذات مرّة، استطعنا اصطحاب نور إلى لعبة العجلة الكبيرة الدوّارة. كانت عطلتي المفضّلة عطلةَ العيد. ذهبنا كلّنا إلى السوق نحاول شراء بعض أطايب العيد. كان رجلٌ في الجوار يملكُ عربةً صغيرةً يصنع عليها غَزْلَ البنات، فابتعنا بعضًا منها. استحالت شفاهنا وألسنتنا زهريّةَ اللون. ذات مرّة، أحضرتُ للرجل بعض السكّر من المنزل، لأنّه كان من الصعب إيجاد السكّر دومًا بسبب الحرب. وقلتُ له أنّه يستطيع الاحتفاظ به ليصنَع مزيدًا من غزل البناتِ للأولاد الآخرين.

كانت عائلاتٌ أخرى خرجت في نزهة أيضًا، وراح الجميع يتبادلون الابتسامات لأنّنا كنّا كلّنا سُعداء. آنذاك، قالت ماما إنّ الجميعَ في طور الشفاء والتحسُّن، لذا كنّا كلّنا في مزاج منشرح. كانتْ لعبة العجلة الكبيرة الدوّارة نُصِبَتْ في الحديقة العامّة قربَ منزِلنا، فذهبنا إلى هناك لركوبها. قال بابا إنّنا نستطيع ركوبها بضع دقائق فحسب، فهو ما انفكّ يقلق إذا ما بقينا خارجًا وقتًا طويلًا. من الصعب جدًّا أن يزول هذا الشعور حتّى لو كنّا في أمان.

لم يحبّ نور العجلة الدوّارة بالقدر الذي توقّعتُه – بكى في أعلاها أثناء الجولة الأولى، لكنّه سرعان ما اعتاد اللعبة وأحبّها. دُرنا ودُرنا مدّة عشر دقائق. وقف بابا وماما يراقبانِنا، مبتسمَين وملوِّحَين، ثمّ راحا يلتقطان صورًا لنا. عندما تمرّ بأوقات عصيبة كثيرة، تلاحظ اللحظات الجميلةَ وتقدّرها أكثر، بل وتعيشها بفرح أكبر.

في ذلك اليوم، كنّا سعداء إلى حدّ أنّنا كدنا ننسى الحرب برمّتِها.

ربّما نستطيع أن نتعلَّم كيف نوقِف الحرب

أفضل ما اختبرتُ في فترة انحسار الحرب؟ المدرسة. فقد اجتمَعَت ماما وصديقات لها وقرَّرنَ إنشاء مدرسةٍ لأولادِ الحيّ كافّة. لم تعُد هناك مدارسُ في شرق حلب لأنَّ جيشَ النظام قصفَها كلّها: مات أولادٌ كثرٌ على مقاعد الدراسة فيما كانوا يتعلّمون، ليس إلّا. شعرَت ماما بالسوء، إذ لم يكن لدينا نحن الأولادَ مكانٌ نتعلّم وندرس فيه، وما من سَلوى أو نشاط نقوم به طيلة النهار. لطالما شدّدت ماما على أهمّيّة التعليمِ، وضرورة التحاق الأولاد كافّة بالمدارس، ليتعلّموا كيف يساعدون غيرهم عندما يكبرون ويصبحون أطبّاء وأساتذة ومحامين مثل بابا، قادرين على تقوية سوريا والنهوض بها. وربّما نستطيع أن نتعلَّم كيف نوقِفُ الحربَ.

طلبت ماما وصديقاتها من الجيران أوراقًا وكتبًا وأيّ شيءٍ يستطيعون تقديمَه.

وكان سكّان في الجوار اجتمعوا وتضامنوا لمساعدة الآخرين، وقد ساعدونا في تأمين معدّات الدراسة.

كانت المدرسة في الشارع المقابل لبيتِنا، تحديدًا في قبوِ مبنًى باتت جميع شققِه مهجورةً بعدما رحل سكّانها. قالت ماما إنّ مدرستنا يجب أن تبقى سرّيّة لئلّا تتعرّضَ للقصفِ.

كانت المدرسة تستقبل حوالى مئة تلميذٍ فقط كلّ يوم. ربّما كان العدد سيتزايد لو لم يخشَ بعض الأهالي أن يغادر أولادُهم المنازل، على الرغم من تراجع حدّة القصفِ. كما قلتُ سابقًا، من الصعبِ جدًّا أن يزول الخوف. إضافةً إلى ذلك، رحلَ أشخاص كثرٌ – إمّا انتقلوا إلى مكانٍ آخر أو قُتلوا.

جلسنا على الأرض، في الملجأ الذي كان مغبرًّا ومعتمًا بعض الشيء، تمامًا كالملجأ في بيتنا، لكنّ ذلك لم يزعجني لأنّني كنتُ في المدرسة. كانت المدرسة مقسومةً إلى ثلاث فئات: فئة تشمل الأطفالَ الصغار مثل محمّد ونور؛ فئة الأولاد الأكبر بقليل مثلي أنا؛ وفئة الأولاد الأكبر سنًّا. لقد درّست ماما بعض الأولاد الكبار الرياضيّات وكيفيّة الكتابة بشكل صحيح. أمّا معلّمتي أنا فكانت فَرَح، وقد علّمتنا أمورًا مشوّقة كثيرة، مثلًا، كيف تصير البيضة دجاجةً، وكيف نكتب أسماءَنا بالعربيّة والإنكليزيّة، وما دور كلّ عضوٍ من أعضاء الجسم. كنّا نرتاد المدرسة ثلاثةَ أيّام في الأسبوع، وتلك الأيّام الثلاثة كانَت أفضلَ أيّامِ الأسبوعِ.

كانت ماما تذهب أيضًا إلى المدرسة ثلاثةَ أيّام في الأسبوع، مثلي. لم تكن شبيهةً بصفوف جامعتها، لكنّها حظيت وصديقاتها بمدرسة، حيث تعلّمنَ اللغة الإنكليزيّة وطبّقنَها في دروس عمليّة. في البيت، كانت ماما تعلّمني الإنكليزيّة أيضًا. من الممتع حقًّا أن نتعلّم لغاتٍ مختلفةً وأن نكتشف تسميات مختلفة للشيء عينه أو الكلمة عينها. على سبيل المثل: في سوريا، نتكلّم العربيّة وحين نلتقي شخصًا جديدًا، نقول: «مرحبًا». أمّا في الإنكليزيّة فنقول: «مرحبًا، سررتُ بالتعرّف بكَ (Hi, nice to meet you)». أو مثلًا في اللغة الإنكليزيّة، البسكويت هو «كوكيز (Cookies)»، والدُمية هي «دول (Doll)». عليكم التحلّي بذاكرة جيّدة لحفظ تسميتين لكلّ شيء. كما عليكم التمرّن كثيرًا وإلّا نسيتُم الكلماتِ. لهذا، أردنا أنا

وماما الذهاب إلى المدرسة – لنتمكّن من تطبيق ما تعلّمناه ونصبح أذكياء.

«كيف كان يومكِ يا صغيرتي؟»

عندما بدأنا أنا وماما ارتيادَ المدرسة، واستأنف بابا العمل، عاد الوضع كما كان عليه في الماضي تقريبًا، ما خلا أنّني ونور ومحمّد لم نستطع البقاء في بيت نانا سمر، بما أنّها أصبحت تعيش في تركيا الآن. أمّا أنا فقد بتُّ كبيرةً ما يكفي لأتمكّن من الاعتناء بنور ومحمّد أثناء غياب ماما وبابا عن المنزل. كنتُ أقيم مدرسةً صغيرةً لشقيقيّ في البيت وأعلّمُهما، فأحاول تلقينَ نور كيفيّة التكلّم، لكنّه لم يكن قادرًا بعد على النطقِ بأيّ كلمة. قالت ماما إنّه عاجز عن النطق لأنّه يخاف من القذائف، حتّى لو تراجعت حدّة القصف. أحيانًا، إذا خفنا طوالَ الوقت، قد تقوم أجسامنا وأدمغتنا بأمور مختلفة ومُعاكسة، حتّى لو لم نشأ ذلك – مثل الانقطاعِ عنِ الكلام أو التبوُّل اللاإراديّ أو المعاناة من كوابيس أو الارتجاف بشدّة. أجل، هذا كلّه قد يحدث لنا.

كنتُ أعلّم محمّد الألوان والحسابَ، لكنّه في بعض الأحيان كان يرفض الاستماع إليّ ويفضّل اللهو بالشاحنات، الأمر الذي كان يزعجني. أحيانًا، حتّى لو لم يكن يفترض بي أن أفعل، كنتُ آخذهما إلى سطح المبنى حيث الحديقة الصغيرة. وكانتِ المساحة شاسعة فوق، فكنّا نركض إلى الخلف فالأمام، وإلى الخلف فالأمام، وهكذا دواليك، ندور وندور إلى أن ينتابَنا الدوار، وكنّا جميعًا نهوى ذلك.

أحيانًا أخرى، كانت ياسمين تأتي لزيارتي وكنّا نأخذ حبل القفز إلى السطح لنتدرّب به.

ذات يوم، قرّرتُ إعداد مفاجأة: سوف أصطحب نور ومحمّد لنزور بابا. كان مكتبُه في الشارع عينه. لم يكن يُسمَح لنا بالخروج من المنزل، لكنّني فكّرتُ في أنّ بابا سيحبّ تلك المفاجأة، بالتالي لن يغضب. عند خروجنا، شعرتُ بتوتّر شقيقيّ. كان يومًا جيّدًا – لم نسمع حتّى الآنَ سوى دويّ قذيفة أو اثنتين بعيدًا جدًّا – فقلتُ لهما لا داعيَ للقلق. لكن، بعدما مشينا مسافةً قصيرةً، هدرت السماء فجأةً، فخاف نور وبال في ثيابه. من ثمّ أجهشَ بالبكاء. قلتُ له أنّ الأمورَ على ما يرام، ولكن لم يكن في وسعنا زيارة بابا بهذا الشكل. لذا، وجب عليّ العودة به إلى المنزل وتحميمه. غسلتُ سرواله في المغسلة لئلّا تكتشفَ ماما الأمرَ. عندما عادت إلى البيت، سألتني، «كيف كان يومكِ يا صغيرتي؟»، فلم أخبرْها بالمفاجأة.

الأمل هو أن نرى العالم جميلًا

حينَ توقّفَتِ الحرب، عاد الأمل. والأمل هو أن نرى العالمَ جميلًا ونستطيعَ فعلَ كلّ ما يحلو لنا. هو أن نشعرَ بأنّنا قادرون على تجاوز أيّ سوء، لأنّ الوضع سيتحسّن عمّا قريب. إذًا، إن كان لديكم أمل، يمكنكم أن تفرحوا بعض الشيء حتّى لو حدثت أمورٌ لا تُعجبكم، لأنّكم على يقين أنّ الأوضاعَ ستتحسَّن. لكن، إن لم يكن لديكم أمل، فكأنّكم تنتظرون حدوث الأمور السيّئة، أو تظنّون أنّ الأمورَ ستكون سيّئة على الدوام، وهذا في الواقع يفاقم الأوضاع سوءًا. لذا، عليكم السعي دومًا إلى التمسُّك بالأمل.

في المقابل، أن تؤمنوا بحدوث أمورٍ جميلة ولا تحدث، صعب جدًّا أيضًا. فأنا قد أملتُ حقًّا بأن يكون زمنُ القصفِ قد ولّى إلى غير عودة. لكنّه لم يفعل. ومع أنّني أملتُ بشدّة بأنّ تنتهي الحرب، إلّا أنّها لم تنتهِ. بل على العكس، باتت الأوضاع أسوأ من ذي قبل.

«قذائف وقذائف،
ولا شيء سوى القذائف»

كأنّ أحدَهم ضغط زرًّا، عادت القذائف الكبيرة كلّها إلى السقوط مجدّدًا، وبات كلّ يوم يومًا سيّئًا، مشؤومًا جدًّا، دائمًا، ومِن جديد. حامت الطائرات في السماء طوال الوقت، لترمي قذيفة تلو أخرى. لم نعُد ننعم بالهدوء مطلقًا. حتّى أنّني نسيتُ معنى الهدوء.

كنّا ماما وأنا لا نزال نصرّ على ارتياد المدرسة، لكن كلّما ذهبنا، وجدنا عدد الأولاد ينخفض أكثر فأكثر، لأنّ الناس كانوا يخشون مغادرة منازلهم.

ذات يوم، كنّا فقط حوالى خمسة عشر ولدًا، وكنّا جميعًا ندرس ونتعلّم حين سمعنا من بُعد هدير الطائرات الحربيّة. قرّرت ماما وفرح عودةَ الجميع إلى المنازل – كان الوضع خطيرًا للغاية. حزنتُ لانتهاء دوام المدرسة في وقت مبكر، لكنّ ماما قالت إنّنا نستطيع متابعة التمرُّن في البيت.

مشينا بخطوات سريعة إلى المنزل، فقد تسقط قذيفة في أيّ لحظة. حين تصل الطائرات، يتسنّى لكم العدّ حتّى الثلاثة أو ربّما الخمسة في أكثر تقدير، ومن ثمّ **بووووم**. إذًا، إن كنتم في الخارج، فما من وقت كافٍ للهروب والاختباء. قبل أن نصل إلى البيت، سمعنا دويّ انفجار مُريعًا، **بوووووم** – وكلّما كان الدويّ شديدًا، كان يعني أنّ

القذيفة أقرب. وهذه كانت قريبة جدًّا. اجتزنا المسافة المتبقيّة ركضًا وصولًا إلى الملجأ.

بدأ هاتف ماما يرنّ. كان بابا مَن يتّصل. استطعتُ سماع صوته عبر الهاتف لأنّه كان يصرخ: «أين أنتم؟ هل أنتم بخير؟ هل سمعتُم بما حدث؟». لم يترك لماما المجال لتُجيب بين سؤال وآخر.

«نحن بخير يا غسّان. إنّنا في المنزل. ما الذي حدث؟».

«الحمد لله»، قال بابا. «لقد قصفوا المدرسة!». كان في السوق وقد رأى سحابة الدخان العملاقة. بدأ الجميع يخبرونه بأنّ المدرسة تعرّضت للقصف، وبأنّ عليهم الإسراع لإنقاذ الأولاد. لكنّنا كنّا قد غادرنا جميعًا.

استمرّ بابا يشكر الله ويحمده مرارًا وتكرارًا لأنّنا ما زلنا على قيد الحياة. لكنّني شعرتُ بالحزن. ليس كما لو أنّ أحدهم قد مات، لا، لكن على الرغم من ذلك، سوف أشتاق إلى مدرستي. لن أستطيع ارتيادَها بعد الآن. وكنتُ أدرك تمامًا أنّ الأمورَ ستعود إلى سابق عهدها: لا مدرسة، ولا عمل، ولا تسوُّق، ولا خروج من المنزل – بل قذائف وقذائف، ولا شيء سوى القذائف.

تُرى كيف هو الموت؟

ثمّ جاء يوم مُريع للغاية وكم أودّ لو أنساه!

استيقظتُ على هدير شديدٍ كالزلزال، تلاه صوت ارتطام صاخب. كان الصوت قويًّا والاهتزازات شديدة إلى درجة أنّني شعرْتُ بأنّ عظامي تتكسّر. حين تسقط القذائف على رؤوسكم هكذا، لا يعودُ في إمكانكم سماعُ أيّ شيء، كأنّ ضجيج العالم كلّه قد اجتمع في صوت واحد، ولكن في الوقت عينه، كأنّ أحدهم يطمس رؤوسكم بوسادات. يهتزّ كلّ شيء فتشعر بالاهتزازات تتغلغل في عمق عظامك وأحشائك – وحتّى في أسنانك. كأنّ الهواء يضغط بشدّة عليك، محاولًا سحقكَ وطمرك في باطن الأرض.

بدأتُ أنادي ماما، وأنا أصرخ.

بدت السماء كأنّ الليل الحالك قد لفّها، فيما كنّا لا نزال في الصباح الباكر، من كثرة الغبار في الهواء. لكن وسط الدخان الكثيف، استطعتُ رؤية وهج نورٍ شديد عبر النافذة – كان المبنى المُقابِل يشتعل. رحتُ أنظر من النافذة إلى شرفتنا، أو بالأحرى إلى ما كان شرفتَنا، فقد تهدَّمت برمّتها فيما تطاير زجاج بابها في الأرجاء كلّها.

على عجل، حمل بابا نور ومحمّد، فيما أطبقت ماما على يدي، وهرعنا كلّنا إلى الملجإ بأقصى ما أوتينا من سرعة. كان باب المدخل إلى شقّتنا قد اقتُلع بأكمله، تتدلّى منه بقايا معلَّقة في الهواء.

حتّى في الملجإ، كنّا لا نزال نشعر بالارتجاجات ونسمع دويّ الانفجارات. صمتنا كلّنا، ورحنا ندعو في قرارة أنفسنا. لم ننفكّ نكرّر «يا لطيف» كالسبحة، أثناء وجودنا في الملجإ. كنّا نتضرّع إلى الله ليرحمنا ويتلطّف بنا.

كنتُ أخشى حقًّا أن يتداعى المبنى فوق رؤوسنا، ويتركنا مطمورين تحت تلك الحجارة كلّها. وتساءلتُ باستمرار: تُرى كيف هو الموت؟ بِمَ يشعر المرءُ ساعةَ الموت؟

حين بدا لنا أنّ القصف توقّف، قال بابا إنّه سيصعد أوّلًا وحده، ويتحقّق ممّا إذا كان المكان آمنًا. بعد دقائق معدودة، نادانا وقال لنا إنّنا نستطيع موافاته، بيد أنّ صوته بدا غريبًا.

عندما صعدنا، كان المشهد مريعًا، مريعًا جدًّا. كأنّ أحدهم خرج إلى شارعنا بمطرقة عملاقة وسحقه شرَّ سحقة. لم أصدّق ما رأيت، لكنّ المبنى المجاور لنا كان ممسوحًا بكامله كأنّه لم يكن موجودًا يومًا. كان جزء منه قد سقط على مبانا ساحقًا الطبقة الموجودة فوقنا، حيث كان يقيم عمّي مازن. أمّا شرفتنا فقد انهارت على سيّارتنا وطمرتها كليًّا فباتت بالكاد مرئيّة. أظنّنا لم نعد نحتاج إلى سيّارة أساسًا، بما أنّه لم تبقَ طرقاتٌ نسيرُ عليها ولا أماكنُ نذهب إليها.

كنّا نسمعُ أشخاصًا كثرًا يصرخون وينتحبون. كلّما انفجرت قذيفة كهذه، كان الجيران كلّهم يتنادون في محاولة للتحقّق من المفقودين. نادوا بابا: «غسّان، هل عائلتكَ بخير؟».

«جميعنا بخير!»، أجابهم بابا. ومن ثمّ كانت العائلات الناجية تهرع لمساعدة غيرها. إذا ما أصيبَ الأشخاصُ أو طُمِروا تحت الرُكام، فعليكَ التصرّف سريعًا لإخراجهم.

لكن يومذاك، كان صراخ أحدهم يعلو على صراخ الآخرين. أمّ ياسمين! كانت تصرخ: «لا، لا، لا!».

شعرتُ بانقباض غريب في معدتي. فقد كانت ياسمين تعيش وأمّها في المبنى الذي لم يعُد موجودًا.

ركضنا ماما وأنا إلى هناك مع الجيران.

كان شعرُ أمّ ياسمين الأسودُ مكسوًّا بالغبار الأبيض كأنّها هرمَت فجأةً. أمّا النقطة الوحيدة في وجهها التي لم ينل منها الغبار، فوجنتاها حيث راحت الدموع تنهمر غزيرة.

ثمّ وصل متطوّعون آخرون لمساعدتنا. بما أنّنا لم نعد نملك سيّارات إسعاف، ولا مراكز شرطة لمساعدتنا في شرق حلب، فقد تطوّعت مجموعة من الناس لتقديم المساعدة إذا ما أصيب البعض أو علقوا تحت الركام بعد القصف. أو كانت تحاول إسعاف المصابين في حال أصيبوا بجروح أو كسور. تلك المهمّة كانت شديدة الخطورة، فجيش النظام لم يكن يحبّذ أيّ شخص يساعد غيره. لذا، عند وصول المتطوّعين بعد سقوط القذيفة، كانتِ الطائرات الحربيّة تعود أحيانًا لتشنّ غارات عليهم أيضًا.

راحوا كلّهم يسرعون: يحفرون وينقّبون ويتنادَون، فيما يُخرجون الجثث من تحت الركام. ثمّ أخرج أحد الرجال جسمًا من تحت الحجارة، فتزايد صراخ أمّ ياسمين. كانت ياسمين هامدةً متراخيةً كأنّها نائمة وملطّخةً بالدم والغبار! لم أقوَ على التحرُّك أو التنفُّس حتّى، فرؤية صديقتي وهي في هذه الحالة بثّت فيّ الذعر. أخذوها في شاحنة كانوا قد نقلوها إلى سيّارة إسعاف. دعوتُ كثيرًا لتكونَ بخير. عانقَتني ماما بشدّة وقالت: «هيّا بنا يا بُن بُن، هيّا نعدْ إلى البيت».

لم أستطعْ أن ألعبَ خلال ما تبقّى من ذلك النهار – بل كلّ ما استطعتُ فعلَه كانَ استعادةَ مشهدِ ياسمين ملطّخةً بالدم، في ذهني.

لاحقًا، في تلك الليلة، وبينما كنّا لا نزال نحاول تنظيف شقّتنا من شظايا القصف ومخلّفاته، سمعنا بكاءً وأدعية كثيرة في الخارج.

امتلأ شارعنا بناس يحملون الجثث إلى الجامع ليصلّوا عليها. هذا ما كان يحصل بعد كلّ قصف شديد أو غارةٍ عنيفة. الشّرع يقضي بأن يلحدوا الموتى في المدافن بعد تأديةِ الصلاة عليهم، لكن خلال الحرب، اكتظّتِ المدافنُ بالجثث، فباتوا يلحدون القتلى في أراضي الحدائق العامّة.

ذلك اليوم، سألتُ ماما مرارًا عمّا إذا كانت ياسمين بخير. كانت تجيب بأنّهم أخذوها إلى الطبيب وبأنّ علينا أن نصلّي ونتضرّع كثيرًا لأجلها. وفي تلك الليلة، سمعتُ أمّ ياسمين ورأيتها تبكي في الشارع.

وفي اليوم التالي، رأيتُها مجدّدًا في الشارع، وكانت لا تزال تبكي... كثيرًا.

«لقد رحلَت ياسمين يا بانة»، قالت لي. فهمتُ ما كانت تعنيه. لقد ماتت ياسمين.

لن أستطيع اللعب معها أبدًا بعد اليوم

بعد رحيل ياسمين، خشيتُ أكثر فأكثر أن أموت. لم أنفكّ أفكّر وأتساءل: بِمَ يشعر المرءُ ساعةَ الموت؟

كنتُ أخشى أيضًا أن يموت شقيقاي أو والداي. أحيانًا، كنتُ أفكّر في الأسوإ. ماذا لو ماتت ماما؟ أو بابا؟ أو شقيقاي؟ إن مُتنا جميعنا معًا، فهذا أفضل. عندئذٍ، لن يشتاقَ أحدُنا إلى الآخر.

تقول ماما إن كنتَ طيّبًا ولطيفًا، أحبَّك الله وحماك وأسكنك الجنّة بعدَ موتك. في الجنّة، أطايبُ وسكاكرُ وألعابٌ – إنّه مكان جميل ويمكنك البقاء فيه إلى الأبد. أتمنّى أن تكون ياسمين سعيدةً هناك.

ومع ذلك، اشتقتُ كثيرًا إلى صديقتي. أن نشتاق إلى شخصٍ ما زال حيًّا أمرٌ مختلفٌ جدًّا عن اشتياقنا إلى شخص فارق الحياة. كنتُ مشتاقة إلى جديّ وأخوالي الذين انتقلوا ليسكنوا في مكان آخر، لكنّهم ما زالوا على قيد الحياة، فأشتاق إليهم أقلّ عندما أتحدّث إليهم عبر الواتساب والهاتف. لكنّ شعور الاشتياق إلى ياسمين كان مختلفًا تمامًا، كأنّ نفسي تغور وتغرق من الداخل. لم يكن في وسعي أن أكلّمها. لن نستطيع التنكّر في أزياء أميراتِنا المفضّلة بعد اليوم، أبدًا. أراهن على أنّ فساتينَ ياسمين المفضّلةَ ما زالت كلّها تحت الأنقاض.

عندما حان موعد عيد ميلادي، لم أشعر بالفرح والحماسة كما من قبل. فقد مضى شهر واحد فقط على وفاة ياسمين، ولن تتمكّن من

المجيء لتحتفلَ معي بأعوامي السبعة الآن. لطالما حضرَت أعياد ميلادي من قبل.

حاول بابا وماما إقامة حفلة مع أنّه كان من الخطر جدًّا أن يأتي أيّ شخص، كما أنّ القصفَ دام طوالَ الليل فأرغمنا على المكوثِ في الملجإ. لم يكن هناك طعامٌ كافٍ في الأسواق، فلم أحصل على قالب حلوى. لكنْ، في الأقلّ، كنّا لا نزال نستطيع الاجتماع معًا كأسرة، وهذا أمر سعيد. أهداني عمّي وسام دميةً جميلةً. وباتت المفضّلة لديّ حالما وقع نظري عليها: كانت تعتمرُ قبّعةً زهريّة وتنتعلُ جزمةً زهريّة أيضًا، تمامًا كتلك التي حصلتُ عليها لمناسبة العيد في العام الماضي. عادةً، لم أكن أسمّي دُماي، لكنّني اخترتُ اسمًا لهذه. قرّرتُ تسميتَها ياسمين.

وحصلتُ على هديّة مميّزة أخرى: لوح آيباد لي أنا وحدي. كان قد استعمله شخصٌ من قبل، لكن لا بأس. وجب على بابا أن يجازف حقًّا ليُحضر هذه الهديّة الاستثنائيّة في زمن الحرب، لأنّ المتاجر لم تكن تعرض بضاعةً جديدة. لكنّه أراد القيام بمبادرة لطيفة جدًّا بما أنّ المناسبة ذكرى مولدي. هكذا استطعتُ مشاهدة البرامج التلفزيونيّة والقراءة على جهاز الآيباد الجديد، وهذا كان جيّدًا، لأنّ الخروج لم يعُد متاحًا لنا. كنتُ أستعمل هاتف ماما على الدوام لأتمكّن من مكالمة أخوالي وأولادهم عبر الواتساب، فقد اشتقتُ إليهم كثيرًا. والآن، بات في إمكاني التحدّث إليهم بالآيباد. واستطعتُ أيضًا أن أشاهد سلسلة الرسوم المتحرّكة المفضّلة لديّ وأقرأ الكتب وأحاول جاهدةً نسيانَ مشاعر الحزنِ والخوف. كنتُ أفلح أحيانًا، وأفشل أحيانًا أخرى.

لم يتسنّ لي الحصول على شموع لأنفخ عليها وأطفئها وأتمنّى أمنية كما نفعل عادةً في أعياد ميلادنا، ومع ذلك تمنّيتُ أمنية: ألّا يموت أحدٌ بعد الآن.

إنها لمعجزة يا بانة أن تكوني على قيد الحياة. أؤمن بذلك من كلّ قلبي. أن يكون أولادي الثلاثةُ وزوجي قد نجوا بعد ستّة أعوام من الحرب الضروس، لا يملأني بالامتنان فحسب، بل أيضًا بالرهبة والمهابة. فمن غير المعقولِ – أو المُنصِف حتّى – أن نكون سعداءَ الحظّ إلى هذه الدرجة. من الغريبِ أن نفكّرَ في كلّ ما مررنا به من معاناة وكلّ ما خسرناه ونظلّ نعتبر أنفسنا محظوظين، لكنّنا كذلك بالفعل. وأشعر بأنّني الأكثر حظًّا بين الجميع لأنّ أولادي كلّهم ما زالوا على قيد الحياة، وقد باتوا في مأمن الآن. بالنسبةِ إلى آلاف وآلاف الأمّهاتِ، ليست هذه هي الحال أبدًا.

واحد من أسوإ وجوه الحرب: السهولة التي تعتادون بها العنفَ والموتَ المنتشرَ حولكم. خلال فترات طويلة متتالية، ومع موت مئات الأشخاص في حلب كلّ يوم، بات من الطقوس الكئيبة إنّما الاعتياديّة أن نتلقّى خبرَ وفاةِ أحدهم – صديق، أو جار، أو ابن عمّ أو عمّة – نتيجة القصف. السماعُ بوفاةِ أحدِهم – وقبول خبر الموت كاحتمال يوميّ – بات من العادات السوداويّةِ الرتيبة، والطريقةِ الوحيدة للصمود والاستمرارِ كانت أن نستقرّ إلى أقصى حدّ ممكن، في حالة من الخَدَر.

كانت نعمة ونقمة في آن واحد أن تتحصّن قلوبُنا إزاء الفظاعاتِ. لكن، أحيانًا، وعلى الرغم من ترسُّخ تلك اللامبالاة القاسية فينا، كان ثمّة ما يستجدّ ليشقّقَ جدارَ الحمايةِ هذا ويخترقنا من الوريد إلى الوريد. وتلك كانت الحال مع وفاةِ ياسمين. كنتما أنتِ وهي مقرّبتَين جدًّا، كما لو كنتما من عائلة واحدة. تلك الأماراتُ والعبراتُ على وجه أمّ ياسمين في ذلك اليوم المشؤوم، ستعيشُ معي دائمًا وأبدًا. ما من أحدٍ يعرف معنى الألم الحقيقيّ إلّا عندما ينظرُ إلى عينَي والدة مفجوعة بخسارة ولدِها. كأنّ أساها استحال جسدًا ملموسًا، وكأنّ اليأسَ صخرٌ ثقيلٌ رُفِع من كومة الركام ليوضَع على ظهرها، مثقلًا كاهلَها وساحقًا كيانَها. حبّذا لو كان جسديًّا في الواقعِ، لأنّني كنتُ سأساعدها في الأقلّ في حمل هذا العبء؛ كنتُ سأرفع عنها هذا الصخر. لكن لم يكنْ هناك ما أستطيع فعلَه للتخفيف عنها. كنتُ أدرك جيّدًا في مَا كانت تفكّر يومذاك فيما كانوا ينبشون الركام بحثًا عن جسم ياسمين، فقد كنتُ سأفكّر تمامًا مثلها: ليتني أنا لا هي. وأيضًا: كيف سأستمرّ في العيش؟ ومع ذلك، نستمرّ بشكل أو بآخر.

ثمّة قصّة ثانية تقضّ مضجعي، قصّة تلك المرأة التي كانت تقيم في شارع منزلنا، والتي كنتُ قد تعرّفت إليها من خلال أسمى. ذات ليلة، أودعت أولادها الأربعة الفراش، تمامًا كما أفعل أنا مع أولادي الثلاثة. شأنكِ وشأن شقيقيك، كان أطفالها يخشون النوم بمفردهم في أوقات الحرب، لذا كانت تضعهم كلّهم في سرير واحد، في المكان الأكثر أمانًا الذي تعرفه، أي على فراش وسط بيتها، بعيدًا من النوافذ. لكن عندما أصابت إحدى القذائف المبنى المحاذي، كانت الارتجاجات التي تلت الانفجار شديدةً وعنيفة إلى درجة أنّ أحدَ جدران شقّتها تداعى وانهار مباشرةً على أطفالها النيام. وفي لحظة، فارق أولادُها كلّهم الحياة. هذا ما حدث فعلًا، لكنّه ما زال لا يُصدّق ولا يتصوّره عقل. وما بين قصصِ الاحتضارِ والفظاعاتِ كلّها، ما زالت قصّتها هي التي تسكنني بكوابيسها اللامتناهية حتّى اليوم. فأنا أحلم على الدوام في أنّني أقفُ أمامَ أجسادٍ ممزّقةٍ، أجسادِ أولادي المسحوقين، أنظر إليها بذعر وأحاول بائسةً انتشالها من تحت جبل الركام. ثمّ أستفيقُ وأنا أتصبّب عرقًا فأهرع إلى غرفتكم. ما زلتم أنتم الثلاثة تصرّون على مشاركة سرير واحد، متكوّمين الواحد بملاصقة الآخر، كمجموعة من الجراء المولودة حديثًا. وأنا أقف هناك أراقبكم أثناءَ نومِكم، محاولةً مناغمةَ نَفَسي مع أنفسكم، إلى أن تهدأ نبضات قلبي وتستعيد إيقاعها الطبيعيّ. ومن ثمّ أدعو من أجل تلك الأمّ، عساها أينما كانت تجد السلام أو ما يشابهه، أو أيّ وسيلة للاستمرار والمضي قُدُمًا.

حين أفكّر فيها وفي أمّ ياسمين وكلّ الذين ماتوا في موطننا خلال السنوات الستّ الأخيرة، ما يعدّ حوالى مئات الآلاف من أصدقائنا وجيراننا والمواطنين السوريين، لا أكاد أحتمل. أمّهات وأخوات كثيرات، وأبناء كثر – لا سيّما الأطفال – جميعهم زالوا من الوجود. وعندما أفكّر في عذابات وفاتهم وعنفها – مثل هؤلاء الأطفال الذين ماتوا بعد طول عذاب واحتضار أليم نتيجة الهجمات الكيماويّة – أتساءل، كيف نسمح بحدوث ذلك؟

وكلّ يوم، مزيد من الموتى والقتلى ومزيد منهم: أناس يقتلهم العنف، أو يموتون نتيجة سوء التغذية والأمراض في المخيّمات، أو يموتون وهم يحاولون عن يأس الهروب عبر الصحراء أو البحر. كمثل الصبيّ الصغير آلان الكردي الذي اشتهر بصورةِ جثّته الهامدةِ على الشاطئ التي تناقلتها وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، فجابَتِ العالمَ. كان آنذاك في سنّ نور بالتمام؛ وكان يمكن أن يكون نور. موتٌ وبؤس. هكذا. من دون سبب. من دون معنى.

لا أنفكّ أخبر والدَك بشعوري بالذنب لأنّنا محظوظان، ولأنّنا نجونا. فنحن لم نفعل أو نقدّم ما يجعلنا نستحقّ العيش، تمامًا كما لم يفعل المواطنون السوريّون وجيراننا ما يجعلهم يستحقّون الموت. وفظاعة هذا السيناريو وقساوته قد ينالان منّي إذا ما سمحتُ بذلك.

آه يا بانة، أن أشرح لكِ ما هو الموت كان من أصعبِ واجباتي كأمّ وأكثرِها إيلامًا! قبل الحرب، كنتِ تجهلين الموت كلّيًا، وفجأةً بات يحاصرُكِ من كلّ صوب. عندما ماتت ياسمين،

استطعتُ رؤيةَ الخوفِ والحزنِ في عينيكِ، ولم يكن في وسعي فعلَ أيّ شيء لإزالةِ هذا الألمِ عنكِ. ثمّة ما تبدّلَ داخلَكِ يومذاك – لقد خسرتِ براءتكِ كطفلةٍ، نهائيًا. بل كان اليوم الأخير من طفولتكِ.

ما من أطفال في سوريا. لقد أرغمتم كلّكم على أن تكبروا قبل الأوان – وأن تفهموا القتل، وتختبروا الخوف والجوع والألمَ، بطريقةٍ يُفترض أن نحمي جميع الأطفال منها. لكنّ تلك الحماية باتت بمثابة ترف غير متوفّر لدينا في الأساس.

ثمّة ما تبدّل داخلي أنا أيضًا مع وفاة ياسمين، ومع فرضِ الحصارِ علينا طوالَ الأشهر العنيفةِ التاليةِ. إضافةً إلى هلعي وفؤادي المحطّم، استبدّ بي الغضب – غضبت لأنّنا مرغمون على المعاناة هكذا، فيما يقف باقي العالم مكتوفَ اليدين. وغضبتُ لأنّني أعجز عن حمايةِ أولادي. وغضبتُ أيضًا لوجودِ عالمٍ يسمحُ بقصفِ الأطفالِ وقتلهم. كما غضبتُ أيضًا وأيضًا لأنّني ربّيتُكم على الكرمِ والعدلِ واللطف والطيبة ومن ثمّ رأيتم عالمًا نقيضًا لكلّ ذلك.

وإذ ازدادت الأوضاع سوءًا، ازدادت معها أسئلتكِ إلحاحًا: هل العالَمُ على علم بما يحدُث لنا؟ هل يهتمّ أحدٌ بحالنا؟ لماذا يستمرّون في قصفنا بالقذائف؟ لِمَ لا نستطيع أن ننعمَ بالسلام؟

كنتُ غاضبةً قبل كلّ شيء لأنّني لم أكن أملك أجوبةً عن تلك الأسئلة. ولأنّكِ أنتِ طفلة السبعة أعوام مضطرّة إلى طرحها.

«لا أصدِّق أنّهم بهذه القسوة»

حلّ رمضان من جديد، وكانت الطائرات الحربيّة تتقن اختيار توقيت زياراتِها، تحديدًا عند غروب الشمس، أي مع حلول موعد الإفطار. كانتِ الطائرات تشنّ علينا الغاراتِ في ذلك الوقتِ تحديدًا، لتمنعَ الناسَ من إعداد الطعام أو الذهاب إلى الجامع لتأدية الصلوات. كان ذلك تصرّفًا أكثر من شرّير. كانت جدّتي العابد تقولُ: «لا أصدِّق أنّهم بهذه القسوة».

كانت قد عادَت وجدّيَ العابد من تركيا. والواقع أنّهما أتيا في زيارة تستمرّ بضعةَ أشهرٍ حين تحسّنَتِ الأوضاعَ بعض الشيء، لأنّهما اشتاقا كثيرًا إلى بابا وأولادهما الآخرين وأحفادهما، أي نحن. لكن، عندما ساءت الأحوال مجدّدًا، علقا هنا، إذ باتَ من الصعب جدًّا الخروج من سوريا. كانت جدّتي العابد تعلق دائمًا في المكان الخطإ.

وذاتَ ليلةٍ، على مشارف نهاية شهر رمضانَ، بدأ بابا وماما وباقي أفراد العائلة يتحدّثون ويتناقشون بنبرات حادّة. كانَ الجميعُ في شرقِ حلب يؤكّدون أنّ جيش النظام ينوي محاصرتنا ليضغط على الجيش السوريّ الحرّ فيستسلم نهائيًّا. وسوف يتّخذ تدابيرَ لمنعِ أيّ شخصٍ من دخولِ شرقِ حلب، ولا حتّى لتأمين الأدوية أو الطعام أو الملابس أو أيّ شيء آخر. وأيضًا لمنع خروج أحد منها. وسوف نعلق هنا. هذا ما يُعرَف بالحصار.

قال بابا وماما أنّ علينا التأهُّب لذلك – وبسرعة. علينا، تأمينُ أكبر قدر ممكنٍ من الأغراض والحاجات لئلّا تنقصَ أو تنفدَ لدينا. وكان علينا القيام بذلك على عجلٍ، قبل أن تنفد البضاعةُ كلُّها من المتاجرِ. خرج بابا في الصباح الباكر من اليوم التالي وابتاع مؤونةً كافيةً – أدوية كثيرة من الصيدليّة، وأكياسًا كبيرة من الطعام الذي لا يفسد، والذي في وسعنا تحضيرُه بالماء فحسب، مثل الأرزّ والمعكرونة والحساء المجفّف. فاشتقتُ منذ الآن إلى البطاطا المقليّة والبيتزا. لكنّ ماما قالت إنّنا محظوظون، فناس كثرٌ ليس لديهم ما يكفي من المال لشراء أيّ طعام، لأنّ الحربَ رفعت أسعار السلع كلّها. تساءلتُ حينذاك، ما الذي سيحدث إذا أكلنا الطعام كلّه ما لم تتوفّر وسيلة لابتياع المزيد. إذًا، علينا أن نكون حريصين ونأكل القليل كلّ مرّة، حتّى لو كنّا نتضوّر جوعًا.

كما ابتاعَ بابا ما استطاعَ من الوقودِ، لكي نستطيعَ تشغيل مولّد الكهرباء خاصّتنا. كنّا نستعمل ذلك المولّد لضخّ المياه منَ البئرِ. وقد حرصنا على تأمين أكبر قدر من المياه في خزّان كبير على السطح. كان بابا وأعمامي يملأونه في منتصف الليل عندَ توقّف القصف، هذا لأنّ النظام كان يرسل الطائرات خلال النهار، لتصوير منازل الجميع، ولم يشأ بابا أن يلتقط جيش النظام صورًا له وهو على السطح.

كانت الألواحُ الشمسيّة تخوّلنا شحنَ بطّاريّات هواتفنا والآيباد خاصّتي وإضاءة لمباتنا، وهذا كانَ جيّدًا. لولا الآيباد، لكانتِ الحرب أسوأ بكثير.

عمدنا إلى تأمين كلّ ما في وسعنا لنكونَ على استعداد تامّ لأيّ طارئ، وهذا كانَ جيّدًا أيضًا، ففي نهاية رمضانَ، تحديدًا بعدَ يومين من عيدِ الفطر، أرسل جيش النظام المدرّعات لتفرض طوقًا على شرقِ حلب. وبدأ الحصار.

كنّا نتناوب ليمنحَ بعضُنا بعضًا الأملَ

لم نعرف ما إذا كان الحصارُ سينتهي يومًا، وهذا ما كان يُخيفُنا. فإذا لم نستطعِ الحصول على طعام أو دواء ثانيةً، فقد نتضوَّر جوعًا، أو نمرض ونموت. وهذا تمامًا ما أراده النظام. لكنّ الجيش السوريّ الحرّ كان يحارب حولَ شرق حلب علّه يخترقُ الحصار فيتمكّن الناس من المرور وإدخال الموادّ الضروريّة من هذا الجزء المحاصَر من المدينة وإليه.

كنّا نسمع صوت المعارك ليلًا نهارًا. على مدار الساعةِ، صراخ وأسلحة رشّاشة وطوّافات وطائرات. أصوات الحرب صاخبة للغاية. كنتُ أعاني من الصداع على الدوام.

لم يكن في وسعنا إلّا الانتظار والتأمّل وتناول المعكرونة والأرزّ. كنّا نستحمّ مرّة واحدة فقط في الأسبوع لنوفّر بعض الماء.

وأربع مرّات في الأسبوع، كنّا نأتي بالخبزِ منَ المجلسِ المحلّيّ لشرقِ حلب. وهو عبارة عن مجموعة تطوَّعت لمساعدة سكّانِ شرق حلب بعدما فُصِلَت عن غرب حلب. كان بابا يعمل معهم في بعض الأحيان. كانت لديهم لائحة بالعائلات كافّة في كلّ محلّة وكلّ حيّ، وكانوا يؤمّنون قطعة خبز لكلّ شخص. إنّما حالما أدرك النظام أنّ السكّان يقفون طوابيرَ للحصول على الخبز، بدأ يقصف خطوط تأمين الخبز. لذا، راح المجلس يتنقّل من بقعة إلى أخرى، فيما تكتّم

الجيران على المكان التالي لتوزيع الخبز، وذلك لئلّا يكتشفَه النظام قبل الأوان.

حاولنا جميعًا مساعدة بعضنا بعضًا على هذا النحو في شرق حلب. أخذنا نتشارك كلّ ما توفّر لنا – مثلًا، كنّا نتشارك المولِّدات وكلُّ واحد يزوّد الباقينَ طاقة ليستطيعوا شحنَ الهواتف أو مشاهدة التلفزيون أو التمتُّع ببعض الإنارة. أو إذا ما أصيب أحد، نتشارك الضمّادات وأيّ دواء أو علاج متوفِّر.

كان بعضُنا يساعدُ بعضَنا الآخر في كنف عائلتي أيضًا. كنتُ مسرورة بأن يقيم أعمامي وعمّتي وأولادهم في مبنًى واحد، وبأن نبقى جميعًا معًا. أحيانًا، كان بابا يساعد عمّي وسام في رفع معنويّاته، فيما عمّتي فاطمة تروِّح عن ماما تمامًا كما أروِّح أنا عن نور. كنّا نتناوب ليمنحَ بعضُنا بعضًا الأملَ.

كنتُ أصلّي لتنجح الخطّة

بعد مضيّ ثلاثة أسابيع على الحصار، وضع الجيش السوريّ الحرّ خطّة لشنّ هجوم مضادّ، وقد ساندَه الجميع. ذات ليلةٍ، امتلأ الجوّ برائحة كريهة نتنة – كانت ناجمةً عن اشتعال المطّاط، تخز الأنف وخزًا شديدًا. كان السكّان قد أشعلوا إطارات في الشارع. وكانت الخطّة تقضي بإثارة سحابة كبيرة من الدخان الأسودِ الكثيف فوق شرقِ حلب، لئلّا ترصدَنا الطائرات وبالتالي، لا تعود تلقي القذائفَ علينا، ومن ثمّ يستطيع الجيش الحرّ اختراقَ الحصار. كانت فكرة ذكيّة أن نختبئ بهذا الشكل، لكنّها في الوقت عينه جعلت الهواء يعبق بالدخان الكثيف والرائحة الكريهة إلى درجة أنّ عينيّ راحت تذرفان الدموع من دون توقُّف.

وبدأ الناسُ يحرقون أشياء في الشوارع – أوّلًا إطارات، ثمّ قمامة، وكلّ ما قد تقع أيديهم عليه. أردتُ الذهاب لمساعدتهم، لكنّ ماما منعتني وسمحت لي أن أتفرّج من النافذة فحسب. كانت قلّة قليلة من العائلات قد بقيت في شارعنا – فالآخرون إمّا رحلوا أو قُتلوا – لكنّهم خرجوا بكثرة يومذاك، بعدد يفوق عدد الذين شَهِدوا بدايات القصف. كنتُ أصلّي لتنجح الخطّة.

ومع ذلك، ما كنتُ لأعتاد تلك الرائحة المقزِّزة – حتّى بعد مضيّ يوم كامل، ثمّ اثنين فثلاثة. راحت الرائحة تزداد نتانةً، فيما رحنا نسعل باستمرار نتيجةَ الدخان. استحال كلّ شيء أسودَ ورماديًّا.

لكنْ، لا بأس لأنّ الخطّة نجحت! بعد أسبوع من القتال، اخترق الجيش الحرّ جبهة جيش النظام وفُكّ الحصار. لقد نجحنا!

شعر الجميع بالفرح والفخر في شرق حلب – بدأ الناس يركضون في الشوارع يتعانقون ويهتفون. وسُمِعت في سائر أرجاء شرق حلب أصداء صلوات وأدعية العيد تصدح في الجوامع. حتّى لو لم يكن يوم عيد، فقد بثّت الجوامع كلّها الأدعية الخاصّة عبر مكبّرات الصوت تنادي الناس إلى الصلاة تثبّتهم وتشجّعهم.

كم كنّا متحمّسين، فالجيش الحرّ أحرز نصرًا كبيرًا، وقد تختلف الأمور من الآن فصاعدًا. وأخيرًا، نجحت آمالنا وصلواتنا. ربّما في وسعه الآن الضغط على قوى النظام لتتوقّف عن قصفنا فتنتهي الحرب. في اليوم التالي، ازداد فرح الجميع مع وصول شاحنات الطعام والمساعدات والإمدادات. هرعنا جميعنا للحصول على حصصنا، فتشكّلت طوابيرُ طويلة بيد أنّ أحدًا لم يأبه. بيض! دجاج! طماطم! كم خشينا ألّا نرى تلك الأطعمة من جديد! كان الجميع يضحكون ويخطّطون لما سيعدّون من طعام للعشاء. وقد قفزنا أنا ومحمّد ونور معًا من شدّة الفرح حينَ رأينا الطعام والفاكهة التي أحضرها بابا إلى المنزل: تفّاحًا وخيارًا وبطّيخًا... كم كانت جميلة! قالت ماما إنّها ستحضّر لنا عشاءً مميّزًا – دجاجًا مقليًّا. كما سلقت لنا بعض البيض. كنّا أنا ومحمّد ونور متحمّسين مسرورين لرؤية البيض إلى حدّ أنّنا أكلنا دزّينة منه! كنتُ مسرورة جدًّا أنّنا استطعنا تحضير وليمة كهذه، فتلك ستكون المرّة الأخيرة التي نحظى فيها بالبيض، والحليب، والفاكهة أو اللحم في حلب.

كأنّ الأمرَ باتَ حقيقةً

كان جيش النظام فائق القوّة. ففي غضون عشرة أيّام، ضرب الحصار مجدّدًا – وأظنّ أنّ النظام غضب غضبًا شديدًا حينَ حقّق الجيش الحرّ خرقًا، لأنّه قصفنا بحدّة متزايدة، وباتَتِ المعارك بين الجيشين أكثر صخبًا وقُربًا، فاستبدّ بنا الذعر من جديد، خصوصًا بنور. فكان كلّما سمع دويًّا شديدًا، تجمّد كالتمثال ومن ثمّ أجهش بالبكاء. كان لا يزال عاجزًا عن النطق – لم يكن يقوى إلّا على البكاء، وهذا ما كان يفعله مرارًا وتكرارًا.

ذات مرّة، وعوضًا عن الجمود عند سماعه هدير الطائرات الحربيّة، خاف إلى درجة أنّه ركض فارتطم بالجدار وشجّ رأسه. سالت منه دماء كثيرة. قالت ماما إنّه في حاجة إلى مستشفى، لكنّ الخروج إلى المستشفيات كان في غاية الخطورة، بما أنّها تتعرّض للقصف طوال الوقت. كان يُعاد ترميمها وإصلاحها قدرَ الإمكانِ، لكنّ النظام لا يلبث أن يعاودَ قصفَها مجدّدًا وهكذا دواليك. لذا، لم نعرف ما العمل. قال عمّي مازن وعمّي يمن إنّهما سيتولّيان نقله. كنت أعانق نور بشدّة على الرغم من الدماء التي لطّختني. قلقتُ من أن يذهب إلى المستشفى فتُقصَف أثناء وجوده هناك. قالت ماما إنّ عليّ أن أفلِته فأدع عمّيّ يأخذانه، لكنّها كانت مضطربة هي أيضًا.

انتظرنا مدّة ساعتين قبل أن يعود، وكان بخير. لم يحتج سوى لقطبتين. أجلستُه في حضني ورحتُ أقرأ له الكتب للترويح عنه.

لطالما حاولتُ الاعتناء بنور وبمحمّد وبأولاد عمّي الصغار قدرَ المستطاع لأنّني الأكبر سنًّا. كان من واجبي أن أخفّف عنهم وألهيهم عنِ الحزنِ والخوفِ. عندما يكون الآيباد مشحونًا (أحيانًا كان ينطفئ، إذ لم تكن طاقة الألواح الشمسيّة تكفي)، كنتُ أدع محمّد يشاهد «سبونج بوب» و«سكوير بانتس» كما يريد. أو أحيانًا أخرى، كنتُ أعانق شقيقيّ وأحملهما – خصوصًا عندما تزداد حدّة القصف ويزداد خوفهما – وأطمئنهما قائلةً: «ستكون الأمور على ما يرام».

في بعض الأحيان، كنتُ أروي لهما الحكايات، مثل حكاية الذئب الذي حاول خداعَ الخرافِ الصغار. أو أصف لهما كيف ستكون الحياة بعد انتهاءِ الحرب: سوف نتناول ما يحلو لنا من الحلوى. وسوف نرى نانا سمر وجدّي مالِك مجدّدًا. وسوف يُصلحون المدارس والحدائق العامّة كلّها، فنتمكّن من اللعب في الخارج. كنتُ أطلب منهما أن يتخيّلا ذلك – أن يفكّرا في الأمر ذهنيًّا كما لو كانَ حلمًا إنّما في اليقظة، كأنّ الأمر بات حقيقة.

وذات مرّة، بعد طول مكوث في المنزل، وعدم تمكنّنا من الخروج بسبب الحصار، خطرت لي أفضل فكرة للترويح عنهما! أوّلًا، علّقتُ حبل القفز في مدخل إحدى الغرف لصنع أرجوحة. ثمّ سحبتُ فراش سريري ووضعته مقابلَ الإطارِ الفارغ، لنتمكّن من التزحلق عليه. وأخذتُ كومة من قطع الخشب الطويلة التي كنّا نشعلها للإبقاء على الدفء، نظرًا إلى نقص الوقود، ووضعتها على كدسة وسادات، وذلك لصنع نوّاسة، بل كانت كالنوّاسة الحقيقيّة! باتت لدينا مساحة كاملة مخصّصة للّعب في الداخل. حتّى لو لم تكن في مستوى ملاعب المتنزّه أو الحديقة العامّة، فقد كانت ممتعة حقًّا.

أحبّت ماما مساحة اللعب خاصّتي كثيرًا وردّدت على مسمعي كم أنا ذكيّة! وقد كانت هي أيضًا صاحبة أفكار جيّدة – مثلًا، حين نستحصل على مياه إضافيّة، كانت تنفخ لنا حوض السباحة المطّاط،

وهكذا نستطيع أن نسبح في غرفة الجلوس. أو بعد أن تنظّف هي الأرضيّة، كان في وسعنا استعمال فائض المياه للتزحلق كما على زحلوقة ماء.

كان يجب علينا التحلّي بذكاء كبير لنبتدع الألعاب ووسائل التسلية، بما أنّنا لا نستطيع أن نقوم بالأمور التي يفعلها غيرنا من الأولاد الذين يعيشون في دول لا تعرف الحربَ – مثل الذهاب إلى مسبح حقيقيّ أو اللعب على أرجوحة حقيقيّة ولعب كرة القدم في الخارج. كنتُ أحاول القيامَ بأمور ممتعة، مثل اللهو ضمن المساحة المخصّصة للّعب في الداخل أو قراءة الكتب الجميلة أو الكتابة أو تأليف الأغاني واختراعِ الألعاب، بغية الترفيه عن شقيقيّ وأولاد أعمامي. كان علينا أن نلعب، وإلّا فقد يبدو أنّنا نعيش في انتظار سقوط القذائف ومعرفة مَن مات نتيجة القصف فحسب.

مع كلّ يوم يمرّ كان ينقصنا المزيد من كلّ شيء

لم يضع الجيش الحرّ أيّ خطّة بديلة، فاستمرّ الحصار يومًا بعد يوم. بحلولِ عيدِ الأضحى، لم يعد هناك طعام لولائمِ العيد في الأسواق، أو ملابسُ في المتاجر، لكي نبتاعَ ثيابًا جديدة كما يُفترض أن نفعل. وكانَ كلُّ شيء مكسوًّا أوساخًا وغبارًا نتيجة القصف، لذا صعُب علينا تنظيف البيت تنظيفًا كاملًا. عادةً، عيد الفطر وعيد الأضحى هما اليومان المفضلان في السنةِ، لكن هذه المرّة لم تكن عطلةُ العيدِ ممتعةً بما أنّنا لم نستطع الاحتفال، الأمر الذي أحزنَ الجميع. لم أعدْ أدري ما إذا بقيت تلك عطلتي المفضّلة أم لا.

كنت في حاجة إلى ثيابٍ جديدةٍ بما أنّني أكبُر، وبما أنّ الجوّ أصبح باردًا أكثر فأكثر، لكنّ ألبسة الفتيات كانت قد نفدت من المتاجر. لذا، اضطررتُ إلى ابتياع ألبسة خاصّة بالفتيان، الأمر الذي أحزنني وأزعجني جدًّا. فأنا أحبّ الفساتين واللون الزهريّ وألبسة الفتيات كلّها. قالت ماما: «هذا جلّ ما نستطيعه يا بانة. آسفة!». لم أردها أن تشعر بالسوء لذا حاولت التوقّف عن البكاء، لكنّني كنتُ أكره ملابس الفتيان تلك.

مع كلّ يوم يمرّ، كان ينقصنا المزيد من كلّ شيء. قليلة كانت الأدوية المتوفّرة للناس في المستشفى، ولم يعد هناك وقودٌ للسيّارات أو المولّدات، فما عادت تعمل. حتّى أنّه لم يعد ثمّة طحينٌ

يكفي للخبز. لقد حالفنا الحظّ، إذ استطعنا تخزين طعام كثير ووقود، على الرغم من أنّني كرهتُ المعكرونةَ والأرزّ مرارًا وتكرارًا وسئمتهما. كنتُ أدرك أنّ هناك أطفالًا لا يملكون حتّى كسرة خبز يتناولونها.

أخذني بابا لنبتاعَ بعض البذورِ، وأنشأنا حديقةً صغيرةً على السطح في محاولة لزرعِ الخضارِ، بما أنّها لم تعد متوفّرة. كانت الخالة زينة صاحبة الفكرة. حين بدأ الحصار الأوّل، راح الناسُ يزرعون البذور. وقد تشاركتْ وسكّانَ مبناها بعض شتول الطماطم. لم تتسنّ لنا زيارتها غالبًا لأنّ التجوّل في الخارج كان خطرًا. لكن، ذات يوم من الهدوء النسبيّ، ذهبنا ماما وأنا نزورها وكانت الخالة زينة قد احتفظت بحبّة طماطم من أجلنا. كم سررتُ لرؤية تلك الحبّة – كأنّها التمعَت حينَ أخرجَتْها من جيبِها! فأنا لم أرَ حبّة طماطم منذُ وقتٍ طويلٍ. كنتُ جائعةً إلى درجة أنّني أردتُ قضم تلك الحبّة الغنيّة بالعصير فورًا، لكنّني دسستُها في جيبي لأتشاركها ومحمّد ونور. عند عودتِنا إلى المنزل، قطّعتُ حبّة الطماطم خمس قطعٍ متساويةٍ، واحدة لكلٍّ منّا. حينذاك، لم أستطع تحديد أيّهما الأفضل: حبّة الطماطم، أو فرحة مشاركتنا معًا، ولو قضمة واحدة.

ربّما يفعل أحدهم أيّ شيء قبل فوات الأوان

أتعبني الحصار والقذائف. أن أشعرَ دائمًا بالخوف وأرى الناس يُصابون ويُقتَلون، ومع ذلك أبذل جهدًا كي لا أفقدَ الأملَ، لأمرٌ مُرهقٌ حقًّا. فأنا لم أعد أؤمنُ بأنّ الحياة ستستعيد لحظاتِها السعيدةَ كما في السابق؛ بل ما انفكّ الوضع يزداد سوءًا.

سألتُ ماما ما إذا كان الناسُ خارجَ سوريا وحلب على علم بما يحدث لنا. لِمَ لم يطلب أحدهم من قوى النظام التوقّف عن قتل الناسِ؟ ألا يُفترضُ بنا أن نكون طيّبين ونساعد الغير؟ هذا ما علّمَنا إيّاه بابا وماما.

إذًا، لا مبرِّرَ أو سببَ وجيهًا للحربِ. من غير المُنصِفِ أن يموت كلّ هذا العدد من الأشخاص والأطفال. فماذا إذًا بعد أن يموت الجميع؟ ماذا بعدُ؟ ما الذي سيتغيّر؟

في الماضي، كان ثمّة ناسٌ كثرٌ في حلب وفي بلادي، لكنّ معظمَهم قد رحل أو مات. لذا، لستُ أدري مَن سيُصلح تلك المباني المهدَّمة كلّها أو يبني مدارس جديدة. ومَن سيتمكّن من العيش هنا؟

كان الأمرُ كما حين أفقدُ بضعَ قطعٍ من لعبة البازل المفضَّلة لديّ. لا يسعني الحصول على قطع جديدة، بالتالي لا يسعني جمعَ قطع البازل لتكوينِ صورةٍ كاملةٍ بعدَ الآن. بل جلّ ما في وسعي هو أن

أرميَ القطعَ كلّها وأبتاعَ لعبةَ بازل جديدة، لكنّنا للأسف لا نستطيع شراء سوريا جديدة.

آنذاك، شعرنا بأنّنا لن نتمكّن من مغادرة حلب، وليس علينا سوى انتظار أن تسقطَ قذيفةٌ على رؤوسنا ونموت جميعًا. أردتُ أن أفعلَ شيئًا، أيّ شيء، لذا غرّدتُ عبر تويتر: «أنا في حاجة إلى السلام».

عندما رحتُ أكتب تلك التغريدة، كنّا تحت الحصار الثاني، منذُ ثلاثة أشهر.

أنا بحاجة إلى السلام. _ بانة # حلب

لطالما تحدّثتُ مع عائلتي وأصدقائي الذين غادروا سوريا عبر فايسبوك وواتساب، وأردتُ أن أُطلعهم على ما يحصل لنا – كيف ماتَتْ ياسمين وكيف قُصِفت مدرستي. قالت لي ماما إنّ هناك متصفّحين أكثر على تويتر مقارنةً بفايسبوك، لذا، يمكنني الاعتماد على تلك الوسيلة لنشر رسائلي، وفَتَحت لي حسابًا لهذه الغاية.

والآن، بات في وسعي أن أخبرَ الناسَ بأنّنا لا نملك طعامًا ولا دواءً، وأحدّثهم عن عنف القذائف وحدّة القصف. لم أكن أدري ما إذا كان أحدُهم سيستمع إليّ أو يهتمّ حتّى، لكنّني كنتُ أتمنّى وأرجو أن يفعلوا شيئًا لإيقافِ الحربِ.

لطالما أحببتُ التحدّث إلى الناس وإقامة صداقات جديدةٍ، وعلى تويتر أستطيعُ مخاطبةَ شعوب العالمِ كلّه. كنّا أنا وماما نتقن الإنكليزيّة وبالتالي، كنّا نستطيع التواصل مع الناس في المملكة المتّحدة البريطانيّة وأميركا عبرَ تويتر. ظننتُ أنّهم قد يساعدوننا.

وعلى الفور، بدأنا نتلقّى الرسائل من كبار وصغار، من أنحاء العالم كلّه. لم أصدّق أنّ الناس كانوا يصغون إلينا، وأنّهم يكتبون لنا كلمات لطيفة ومواسية جدًّا. كنّا أنا وماما نقرأ تلك الرسائل عندما نضطرّ إلى الاختباء في الملجإ ساعاتٍ. عندما كنتُ أقرأ الرسائل، كنتُ أشعر

بأنّ الناس يهتمّون بأمرنا، وبأنّنا لسنا وحدَنا، وربّما يقوم أحدهم بأيّ شيء قبل فوات الأوان.

خشيتُ ألّا يصدّقنا أحد

أردتُ أن أغرّد عبر تويتر كلّ يوم لأخبر الناس بسوء الوضع في حلب، ولأحدّثهم عن خوفي في اللحظات العصيبة كلّها، وقد كانت كثيرة. لكنّني استمتعتُ أيضًا بأن أخبرَ العالم بأمورٍ جيّدة وجميلة، مثل حادثة فقداني أسنانَ الحليب.

كانت ماما تساعدني في صوغ ما سأكتبُ بالإنكليزيّة. وكنّا نلتقط صورًا كثيرة وأفلام فيديو ليتمكّن العالمُ من رؤية ما يحدث في سوريا. فقد خشيتُ ألّا يصدّقنا أحدٌ ما لم يرَ بنفسه سوء الوضع وفظاعته، من جثث هامدة وأبنية مسحوقة.

حاولتُ إخبار الناس بكلّ أمر سيّئ يحدث، مثلًا ما حصل لصديقتي مروى، البالغة سبعةَ أعوام مثلي. يومذاك، سمعنا دويًّا هائلًا كالزلزال لكنّنا لم نسمع هدير أيّ طائرة. هرعنا إلى النافذة فرأينا سحابة عملاقةً من الدخان والغبار في الجوّ. ركضنا إلى المبنى حيث الدخان، وكان مشهدًا مُريعًا: مبنى بشقق كمبنى عائلتي، تعيش فيه أربع عائلات تمامًا مثل مبنانا، كان قد انهار بأكمله، بمَن فيه. قال الجيران إنّ حوالى عشرين شخصًا كانوا يقيمون هناك. حضر المتطوّعون وحفروا ونقّبوا طوال النهار، محاولين انتشال الضحايا. وقد عثروا عليهم، لكن، لم يكنْ أحدٌ منهم على قيد الحياة.

غادَرْنا المكانَ مع غروب الشمس، واصطحبني بابا إلى السوق. كنّا حزينين بعد يومٍ طويل وشاقّ من التنقيب والموت، وراح بابا يحاول إيجادَ ما يروِّح عنّا. ربّما نجدُ بعض الأطايب على الرغم من عدم توفّر السكاكر والحلوى منذ زمن طويل. في السوق، أخبرَنا الجميع بأنّ والد مروى وشقيقها مفقودان منذ بداية النهار، فيما قال رجل آخر إنّه سمع أنّهما ذهبا يصلحان مبنى ما، ذلك الصباح. وكان المبنى عينه الذي انهار. نادى بابا بعض الجيران وعدْنا جميعًا لنبدأ البحث والتنقيب من جديد.

كان ثمّة ركام كثير؛ فقد انهار المبنى كاملًا. لم نستطعِ التنقيب بأيدينا فحسب، لذا استعنّا بجرّافة أيضًا. كانت مروى وأمّها تبكيان كثيرًا. عانَقتُها وقلتُ لها أنّنا سنعثر عليهما. رحْنا جميعًا ننبش ونحفر بأسرع ما يمكن. لم يكن في وسعنا أنا ومروى أن نرفع الأحجار الكبيرة، لكنّنا ساعدنا بإزالة الصغيرة منها. نقّبنا ساعاتٍ وساعات؛ وقد سمحت لي ماما بالبقاء للمساعدة. لكنّنا لم نجدْ شيئًا. ثمّ قالت ماما إنّ عليّ الخلود إلى النوم، وفي إمكاني العودة غدًا لتقديم المساعدة. وهذا ما فعلتُ. ذهبتُ أساعدهم أيضًا في اليوم التالي. كلّ يوم، كنتُ أطمئنُ مروى بأنّ علينا التمسّك بالأمل. كانت تجيبني بأنّها لا تودّ البقاء من دونِ أبيها، وبأنّها مشتاقة إليه أصلًا. لكن، قد لا يكونانِ تحت الركام في النهاية. أو إن كانا هناك فهما بخير على الأرجح.

لكنّهما لم يكونا بخير. بعد أسبوع من التنقيب، عثرنا عليهما – كان الأوان قد فات. حين يموت أحدٌ بالقصف، يبدو متكوِّمًا مثل المبنى، ورماديًّا أيضًا مثله. كما يكون جسده هامدًا متراخيًا وأحيانًا تتدلّى منه أشلاء أو تنفصل عنه أطراف كالساق أو الذراع، أو حتّى الوجه. إنّه مشهد مروِّع لن تودّوا رؤيته أبدًا.

كنتُ أفكّر في أنّه لو علم الناس كلّهم بوضعنا المذري وبعدد الضحايا الذين يسقطون – على غرار عائلة بأكملها وأبي مروى وشقيقها في غضون لحظة واحدة – فقد يساعدوننا.

#ساندوا حلب

تحمّستُ وسررتُ كثيرًا حين رأيت عدد متتبّعي تغريداتي يتزايد أكثر فأكثر – كان من الممتع جدًّا أن أعدّهم. كنتُ على ثقة أنّ كلّ هؤلاء الناس من شتى أنحاء العالم، قد يستطيعون مساعدتنا في وضع حدّ للحرب.

قرّرنا ماما وأنا أن نُطلق هاشتاغ لننشرَ معاناةَ حلب وندعوَ الناسَ إلى دعمنا ومساندتِنا وربّما إنقاذِنا. فغرّدتُ #ساندِوا حلب على صفحتي، وقد استعمل الجميع في بقاع الأرض كلّها هذا الهاشتاغ، وذلك أكثر من مليون مرّة.

وهكذا، أصبح الناس أكثر اطلاعًا على سوء الأوضاع في سوريا، وتفاعلًا معَ معاناتِنا، وأنا مَن ساهمتُ في ذلك! لم أشأ أن ينسانا الناس، بل أردتهم أن يستمرّوا في توجيه الرسائل اللطيفة التي تعبّر عن مدى اهتمامهم بي. كلّما تلقّيتُ واحدة، تحسّنت معنويّاتنا أكثرَ.

بات لي أصدقاء كُثُر في سائر أنحاء العالم. حتّى أنّ بعض مُراسلي الأخبار أرادوا التحدّث إليّ. وثمّة صحافيّ يُدعى أحمد حسن كان هو الآخر يقيم في حلب، حضر إلى منزلنا ليتعرّف إليّ. يومذاك، ارتديتُ تنّورتي المفضّلة وقميصًا أبيضَ جميلًا من أجل المقابلة. كنتُ متوتّرة بعض الشيء لأنّني لم أجرِ مقابلة مع مراسل صحافيّ من قبل. لكنّه كانَ لطيفًا للغاية. أريته كيف أستطيع القراءة والكتابةَ بالإنكليزيّة، وقال إنّني ذكيّة جدًّا. ثمّ سألني لِمَا بدأتُ أتواصل مع

الناس على التويتر، فأجبتُه بأنّني سئمتُ الحربَ وبأنّني حزينةٌ جدًّا لأنّ مدرستَنا قُصِفت وأصدقائيَ قتلوا. وإنّما أردتُ أن يساعدَنا الناس. فقال لي إنّه يظنّ أنّني أنا مَن يساعدُ الناسَ، وهذا ما أشعرني بالرضا والسرور.

هناك أشخاص في حلب قالوا الأمر عينَه أيضًا. عندما صادفونني في الشارع فيما ألتقطُ صورًا أو فيديوات، كانوا يقولون: «شكرًا يا بانة» و«أحسنتِ يا بانة»، وكانوا أحيانًا يغرِّدون لي على التويتر. كنّا نظنّ جميعًا أنّ العالمَ نسيَ أمرَنا، لذا أعجبهم جدًّا أن أوصيَ الناسَ بعدمِ نسيان شرق حلب.

وبعد كلّ غارة جويّة أو جولة قصف، كان ثمّة أشخاصٌ يأتون إلى حيّنا ليصلحوا الواي فاي وليتحقّقوا من أنّ شبكة الإنترنت والكابلات ما زالَتْ تعمل. كانوا يقولون إنّ من المهمّ أن أستمرّ في إخبار العالم بما يحدث لنا.

حتّى لو نالتِ القذائف منّا جميعًا، فسوف يعرف الناسُ ما حدثَ لنا. هكذا، في الأقلّ، سيتسنّى لنا أن نقول كلمة وداعٍ أخيرةً.

«ستواجهون خطرَ الموت»

أتتِ الطائراتُ، ولكن عوضًا عن رمينا بالقذائف، ألقتْ رزمًا من المناشير. كانت تلك المناشير تقول: «سيتمّ تدمير هذه المنطقة، وستواجهون خطرَ الموت. عليكمُ الرحيلُ على الفور». كما بعثت الحكومةُ برسائلَ لتحذيرنا من أنّ غاراتٍ عنيفةً ستُشَنّ خلال أربع وعشرين ساعةً.

لقد قرّرت قوى النظام أن تقصف شرقَ حلب، شارعًا تلو آخر، لتقضي على جميع عناصر الجيشِ السوريّ الحرّ الموجودين في شرقِ حلب.

لكنّنا كنّا موجودين فيها نحن أيضًا.

قالوا إنّ علينا الرحيلَ، لكن لم يكن لدينا مكانٌ نذهب إليه بما أنّ جيش النظام كان يحاصر المدينة. وربّما عناصره يقومون بخدعة خبيثة جديدة ليطلقوا النار على الناس الذين قد يحاولون بلوغ غربِ حلب أو يوقفوهم.

ذات مرّة خلال الحصار، كانت طائراتٌ عدّة قد رمت مناشيرَ في سائر أنحاء شرق حلب. وكانت تلك المناشير تقول إنّ الحكومةَ تنوي وقف القتال والقصف حتّى يستطيع السكّان العبور إلى غرب حلب، حيث يكونون بمأمن. لكن، حين حاول بعضهم، أطلق الجنود النار عليهم. وكان إذا ذهبَ بعض الرجال إلى غرب حلب، كانت قوى النظام ترغمهم على القتال في صفوفها وإن لم يرغبوا في أن

يتجنَّدوا. لذا، أن يقولوا أنّنا نستطيع المغادرة إلى غرب حلب لنكون في مأمن، لم يكن سوى مجرّد حيلة رخيصة.

بعد سقوط المناشير، تفاقم الوضع إلى حدّ مروِّع. لا بل كان من شبه المستحيل أن نتصوَّر مدى تفاقم الأوضاع منذ تلك اللحظة. كانت أسوأ أوقات حياتنا وأفظعَها.

في السابق، كان يومًا جيّدًا حينَ تسقط قذيفتان فقط، فيما تسقط عشر قذائف في يوم مشؤوم أو سيّئ. أمّا الآن فقد راحت القذائف تسقط ليلًا نهارًا بلا هوادة، بالمئات ربّما، لم نكن نستطيعُ عدّها. ليس في وسعكم تخيُّل سوء الوضع وفظاعته عندما تسقط القذائفِ حولَكم طوال الوقت. وهذه القذائف من نوع مختلف، حتّى إنّها أكبر حجمًا. إضافةً إلى ذلك، بات القصف بمزيد من قذائفِ الكلورين.

لم يعد في إمكاننا النوم بسبب كثرة القذائف. ولم نعد نحضّر الأرزّ أو المعكرونة، لأنّنا لا نملك الوقت الكافي بين غارة وأخرى.

أوّلًا، كنّا أنا وشقيقاي وأولاد أعمامي نبكي عند سماع دويّ القذائف، لكن بعد فترة توقّفنا عن البكاء – بمَن فينا نور – لأنّه لم يعد لدينا دموعٌ نذرفها.

ذات صباح، أتت جدّتي العابد، وتحدّثت إلى ماما وبابا بلهجة جدّيّة. لم يكن يُفترض بي أن أسمعَ، لكنّني سمعتُها تقول أنّ الجيشَ بات على مقربةٍ منّا وأنّ «محلّتنا ستكون التالية».

ذهب بابا في الحال ليصطحب عمّي وسام، وقد قال إنّهما سيعودان لاحقًا. لم أشأ أن يذهبا ليستطلعا فرقَ الجيش.

حاولت ماما الترويح عن جدّتي بتقديم بعض الشاي، لكنْ لا أظنّ أنّ الأمر قد نفع في شيء.

عاد بابا في وقت متأخّر، قبل موعد العشاء مباشرةً. كنتُ في غرفة الجلوس أكتبُ في مفكّرتي، لكنّه لم يأتِ لمعانقتي كما جرت

العادة عند عودته. بل توجَّه مباشرةً إلى المطبخ ليكلّمَ ماما وجدّتي، وبلهجة أكثر من جدّيّة.

أدركتُ أنّ الوضع سيّئ جدًّا.

كأنّني متُّ، وأنا لا أزال حيّةً

بل كان أسوأ بكثير من السيّئ؛ بات أفظع ما قد نشهده يومًا.

كان بابا وأعمامي وجدّتي يتحدّثون في غرفة الجلوس، يحاولون وضع خطّة للهروب منَ الجيش. وكانت ماما في المطبخ مع عمّتي فاطمة تحضّران طعام العشاء (المزيد من الأرزّ). أمّا أنا فكنتُ في غرفة الجلوس، منكبّة على الكتابة في مفكّرتي، حينَ سمعتُ الدويّ الأعنفَ الذي عرفته في حياتي، كأنّه أصوات عدّة في آنٍ واحد: زجاج يتكسّر، وجدران تنهار، وارتطام صاخب كأنّه أصاب الكرة الأرضيّة كلّها.

ومن ثمّ شعرتُ بأنّ أحدهم لكمني بشدّة وقد أتت الضربة قاضية وأردتني. استحال كلّ شيء ظلامًا وصمتًا. كأنّني متُّ، لكنّني كنتُ لا أزال حيّةً.

بعد ذلك، سمعتُ صرخاتٍ عدّة: ماما، ومحمّد، وعمّتي فاطمة، ولانا، والجميع يصرخون ويصيحون دفعة واحدة.

كان في وسعي سماعُ الصراخِ، لكنّني لم أتمكّن من رؤية أحد. كان كلّ شيء محجوبًا بالدخان الداكن. انقطع الهواء ومعه أنفاسي. ولم أستطعِ التوقّف عن السعال. لم يكن في وسعي رؤية أيّ شيء. كنتُ مرتبكةً تائهةً، إلى أن أدركتُ أنّه قد حَدَث أخيرًا: لقد أصابت إحدى القذائف شقّتنا مباشرةً، مدمّرةً كلّ ما فيها.

شعرتُ بذراعين حولي، ومن ثمّ هبطنا السلالم سريعًا.

وصلنا إلى الملجإ، وحينذاك، رأيتُ عمّيَ وسام يحملني. ثمّ أنزلني أرضًا، ونظرتُ حولي – كان أعمامي وعمّاتي وأولادهم قد هرعوا هم أيضًا إلى الملجإ. ما عدا ماما. أو بابا. بدأتُ أناديهما صارخةً. لا جواب. كنتُ مقطوعة الأنفاس كأنّني ركضتُ طويلًا، ولو أنّني لم أركض البتّة في الحقيقة.

بعد دقيقة، وصلت ماما وهي تحملُ محمّد المكسوّ غبارًا؛ كانت تبدو كالشبح. عانقَتني وهي تصرخ «أين نور؟ أين غسّان؟» مرارًا وتكرارًا.

ارتحتُ كثيرًا لرؤية ماما حيّةً تُرزَق، إلى درجة أنّني شعرتُ بوهن. كأنّه حلم وكابوس معًا.

استبدّ الهلع بالكبار، وتحديدًا بجدّتي العابد التي طغى نحيبُها على بكاء الآخرين. فقد كانت قلقةً بشأن جدّي الذي بقي في بيته. وأيضًا بشأن بابا. لا أحد كان يدري ما العمل.

ثمّة من قال إنّ الملجأ ليس آمنًا. لكن ما من مكان آخر نلوذ به. كان في وسعنا سماعُ القذائف تنهال حولَنا. وضعت ماما محمّد أرضًا فدبّ نحوي وجلس في حضني. كانت تتحدّث إلى عمّي وسام وهي تحاول أن تعرف مكانَ بابا.

«هل رأيتَه؟ هل رأيتَه؟ هل مات؟»، استمرّت ماما تصرخ وكان صوتها عاليًا جدًّا.

«هل أحضَر نور؟».

أجابها عمّي وسام بأنّه على يقين أنّ بابا ونور بخير؛ وأنّهما حتمًا قد هبطا السلالم إلى الجهة الأخرى من الملجإ.

كانت ماما تنوي الصعود إلى الطبقة العلويّة لتنزل السلالمَ الأخرى وتتحقّق من الأمرِ، لكنّنا توسّلنا إليها ألّا تفعل. لم يكنْ ذلك آمنًا.

فارتمت أرضًا، وأخذت تبكي. كلّما كنتُ أفكّر في أنّ نور وبابا ليسا معنا وأنّهما قد يكونان ميتَين، أصابني إرهاقٌ شديد، كأنّني أودّ أن

أتمدّد على الأرض وأغطّ في نوم عميق فحسب. فأن أكون صاحيةً كانَ أصعبَ من أن يُحتَمَل. لا بل كان من الصعب أن أفكّر في أيّ شيء، لأنّ القذائف ما انفكّت تنهمر علينا فيما راحت جدران الملجإ تهتزّ وتنهار.

أسرعت ماما تغطّي فمي وفم محمّد بوساطة خرقة من قميص ممزَّق وذلك لئلّا نستنشقَ الغبار. وقد تمدّدت بجسمها علينا لتحمينا من الحجارة وأجزاء الجدران المتداعية. مع ذلك، بقيت بعض الشظايا تُصيبنا، كأنّما أحدهم يخزُني بأداة حادّة في أنحاء جسمي كلّه. كنّا جميعنا ننزف من جروح عدّة.

فجأةً، وقع عمّي نزار أرضًا، فظننّا أنّه مات. لكنّ ماما قالت إنّه أغمي عليه فحسب. صبَبْنا الماء عليه ليستعيد وعيه.

ثمّ أصاب جزء كبير من الجدار عمّي مازن. أطلق صرخة شديدة، وبدأت الدماء تسيل من ساقه. «أنا بخير، أنا بخير»، قال لنا، لكنّني أدركتُ جيّدًا كم كان يتألّم.

بعد فترة، خيّم الصمت علينا، فلم يكن في وسعنا فعل شيء سوى الجلوس فيما ترجُمُنا السماء.

لقد زال منزلنا

مضت ساعات عدّة قبل توقُّف القصف. والواقع أنّني خشيتُ أن يتوقّف، فهذا يعني أنّنا سنصعد إلى الطبقة العلويّة ونعرف بصورة نهائيّة ما إذا كان بابا ونور قد ماتا. ولم أشأ أن أعرف قَطّ.

عندما هدأت الأجواء، أوصانا عمّي وسام بالانتظار ريثما يصعد هو ليتحقّق من الأمر. وقد عاد بأفضل خبر! بابا ونور كانا على قيد الحياة. لقد كانا في الملجإ الآخر. لم تستطع ماما التوقّف عن البكاء مع أنّ الخبر كانَ سارًّا.

خرجنا جميعًا بمَن فينا بابا ونور إلى الشارع، وأردنا كلّنا أخذ الوقت الكافي ليعانق أحدُنا الآخرَ ونفرح معًا لأنّنا أحياء، لكن لم يكن هناك وقت لذلك فالطائرات قد تعود في أيّ لحظة، وعلينا أن نجد مكانًا نلجأ إليه.

انتظرنا في الشارع، فيما هرعت ماما على عجل إلى البيت لترى ما إذا كان في وسعها أن تأتي بمقتنياتنا الثمينة، كالمال مثلًا. حملت هاتفها سريعًا وحقيبة يدها مع بعض اللوازم الضروريّة التي كانت تُبقيها دومًا في متناول اليد قبل أن تركض إلى الملجإ، لكنّها أرادت جلب هاتفِ البابا والشاحِن. أردتها أن تأتي بدُماي أيضًا. لكنّني نظرتُ إلى أعلى وعلى الرغم من العتمة، أدركتُ أنّ منزلَنا مسحوق بأكمله. فعرفتُ حينذاك، أنّ كتبيَ وألعابيَ كلّها قد امّحت على الأرجح من

الوجود. شعرتُ بما هو أسوأ من الحزن عند رؤيتي منزلنا مدمَّرًا. كأنّما أصبحتُ سوداء معتمة من الداخل.

فجأةً، رأينا جدّي العابد يصعد راكضًا – لقد قلق كثيرًا على جدّتي. فتعانقنا جميعًا وبكينا من جديد. لكنْ، كان علينا أن نجدَ مكانًا آخرَ نلجأُ إليه. كنّا في منتصف الليل، ومن الخطر أن نتجوَّلَ في الشارع. قرّر بابا وعمّي وسام أنّ علينا الذهابَ إلى مبنى جديّ العابد، أقلّه موقّتًا – فقد قال جدّي إنّه لم يُصَب بضررٍ كبير.

وجب علينا الركض بسرعة فائقة لئلّا تطاولَنا أيّ قذيفة. كان السواد حالكًا في الخارج، الأمر الذي أخافني. كنّا بالكاد نستطيع تمييزَ مكانِ سيرِنا. قالت ماما إنّنا لا نستطيع استعمال هواتفنا لإنارة دربنا أو النظر إليها حتّى، وإلّا رصدتنا الطائرات. كما أنّ الجوّ كان شديد البرودة وكنّا حفاة. كان الركام والشظايا في الشارع تجرّح قدميّ. لكن، كان عليّ التصرُّف كفتاة ناضجة وأركض، لأنّ بابا كان يحمل محمّد فيما ماما تحملُ نور.

أخيرًا، وصلنا إلى مبنى جدّتي، فتوجّهنا فورًا إلى الملجإ. كم كان باردًا! كان عمّي نزار مَن يعاني الأكثر من الصقيع لأنّ قميصه قد تجمّد نتيجة المياه التي صببناها عليه. لذا، جلسنا جميعًا الواحد ملاصقًا الآخرَ سعيًا إلى قليل من الدفء. من الجميل أن تكون أسرتُنا كبيرة متى احتجنا البقاء دافئين!

على الرغم من شروق الشمس الآن، كنّا جميعًا مُرهَقين. احتضنتنا ماما إلى أن غلبَنا النعاس. غالبًا ما كان من الصعب أن نغفوَ، فكنّا ننام قليلًا بين الفينة والأخرى عندما يعود الهدوء، أي تقريبًا لم نكن ننام قَطّ نظرًا إلى تحليق الطائرات المتواصل في السماء. لكنّني تلك الليلة شعرتُ بتعب شديد كما لم أشعر مرّة في حياتي. كان في وسعي النوم إلى الأبد.

وكم كان الاستيقاظ صعبًا، إذ تذكّرتُ ما حدث: لقد زال منزلنا. عندما صحوتُ، كان ماما وبابا قد ذهبا، وهذا ما جعل نبضات قلبي تتسارع. قالت لي جدّتي العابدُ أن أهدأ – فقد ذهبا فحسب للتحقّق ممّا إذا كان في وسعِهما جلب أيّ غرض من المنزل. تمنّيتُ أن يجلبا دُماي، لكنّني خشيتُ أن تكون قد ماتت كلّها. حتّى ياسمين.

ما الذي قد يحدث إن عثر الجيش علينا؟

لم يعُدْ لدينا منزلٌ. لم يسبق أن خسرتُ منزلي من قبلُ، لذا لم أعرف كيف ستسيرُ الأمورُ لاحقًا. إلى أين نذهب الآن؟ كان جيش النظام يقصف شرقَ حلب، مفجِّرًا شوارعها الواحد تلو الآخر، يومًا فيومًا، لذا وجب علينا الابتعاد أكثر فأكثر باتّجاه الغرب، بعيدًا منَ الجيش الذي كان يُطاردنا.

أسرع بابا وعمّي وسام، يحاولان إيجاد مكان نأوي إليه. قال عبدالرحمن، وهو صديق بابا، إنّه يعرف مكانًا نستطيع البقاء فيه، لكنّه أبعد من أن نصل إليه مشيًا. لذا، ذهب بابا وعمّي وسام يبحثان عن سيّارة أو عربة. كان عليهما الاستعجال، فالجيشُ يدنو أكثر فأكثر.

جمعَت ماما ما استطاعت من مقتنياتنا، لكنّ معظمها كان قد دُمّر. أرتني الفيديو الذي صوّرَته، فأردتُ عرضه على تويتر ليعلم الجميع أنّني فقدتُ بيتي. عاودني ذلك الشعور السوداويّ القاتم حالما شاهدتُ الفيديو، خصوصًا حينَ رأيتُ غرفتي.

بعد مضيّ وقت قليل على رحيل بابا، بدأتُ أقلق وأخشى أن يجدنا الجيش، أو أن يكون قد عثر عليه الآن. لم أكن متأكّدة ممّا قد يحدث إن عثر الجيش علينا. هل يقتلُنا بالرصاص؟ أم يسجننا؟ هل يمكن أن يضعنا كلّنا معًا في سجن واحد؟

أحيانًا، كنتُ أتمنّى طرحَ الأسئلةِ على ماما، لكنّني في الوقت عينه كنت أخشى كثيرًا أن أطرحها.

ثمّ عاد بابا وعمّي وسام وهرعا نزولًا إلى الملجإ، حيث كنّا لا نزال ننتظر. «هيّا بنا، هيّا، أسرعوا!»، قالا لنا وركضنا جميعًا إلى الشارع. نظرتُ إلى السيّارة التي عثرا عليها؛ كانت شاحنة صغيرة ومؤخّرها مفتوحًا. «ادخُلوا!»، راح بابا يحثّنا.

كنّا قلقين لأنّها لن تتّسع للجميع. لكن، كان علينا أن نركب. لذا، دخلنا جميعًا – تسعةَ عشرَ شخصًا – تلك العربةَ. لستُ أدري كيف استطعنا. وكان علينا التشبّث بشدّة لأنّ الشاحنة أخذت تتأرجح وتترنّح على الركام والحصى، ولأنّ بابا كان يقودها بسرعة جنونيّة. حتّى أنّني ظننت أنّنا سنسقط منها. كان نور يصرخ طوال الوقت. أمّا أنا فأغمضتُ عينيّ بإحكام لئلّا يعتريني الخوف. بيد أنّ ذلك لم ينفع.

لم أشعر يومًا بهذا السوء في صميم قلبي

كان البيتُ الجديد وسخًا جدًّا. وقد كرهته مذ وطأنا عتبته. كان مهجورًا لا يسكنُه أحد منذ زمنٍ طويل: لا أثاث ولا طعام ولا تدفئة. لم يكن بيتًا حقيقيًّا قطّ.

غادر بابا وعمّي وسام مجدّدًا حالما وصلنا إلى المكان. فقد ذهبا يبحثان عن مياه. أملْتُ بأن يعودا قريبًا، لأنّني كنتُ أعاني ظمأً شديدًا. حاولتُ أن أتذكّر كم مرّ من الوقت مذ حصلتُ على طعام وماء آخرَ مرّة. يا له من شعور مُريع حين يجفّ حلقك إلى درجة التيبُّس فتكاد تعجز عن الابتلاع ويفرغ بطنك ويصبح خاويًا إلى درجة يتمزّق ألمًا!

تمنّيتُ لو أستطيعُ الاستحمام. كنّا متّسخين جدًّا بسبب الغبار والجروح، لكن ما من وسيلة للاغتسال. وفي أيّ حال، لا ملابس نظيفة نرتديها. كان بابا قد وجد لنا بضعة أزواج من الأحذية في إحدى الأسواق – كانت أشبهَ بخفّان أكثر منها أحذية، لكنّ أصحابَ المحالّ لم يملكوا أيّ حذاء، وكنّا في حاجة ماسّة إلى ما ننتعله.

لم أشعر يومًا بهذا السوء في صميم قلبي: جائعة وعطشى ومُرهَقة وخائفة وحزينة وأكاد أتجمّد من شدّة الصقيع، بما أنّنا لا نملك التدفئةَ ولا البطّانيّات. ولم تنفكّ أذناي تطنّان وتصفران نتيجة دويّ القذائف. كانت كتلة من المشاعر المُقرفة في آن واحد، إلى حدّ

أنّني لم أعرف ما أفعل أو كيف أتصرّف. استلقيتُ فحسب في حضن ماما، وحاولتُ ألّا أفكّر في هذا كلّه.

ربّما لأنّ قلبي كان مريضًا

لم أكن أعرف كم من الوقت سنبقى في هذا المنزل أو ما إذا أصبحَ بيتَنا الجديدَ. الأمرُ الجيّد الوحيد فيه كان أنّنا لم نعد نسمع كثيرًا دويَّ القذائف. فقد ابتعدنا ما يكفي عن مواقع الجيش، بالتالي خفّت وتيرة القصف هنا – قذيفة أو اثنتان كلّ يوم.

كان الأمر الوحيد الجيّد، لأنّ جميع الأمور الأخرى كانت سيّئة جدًّا. لقد حاول بابا تأمين المياه كلّ يوم، إنّما لم تكن تكفي. وبما أنّ الوقود لم يعد متوفّرًا، فقد كان من الصعب تشغيل الموّلدات، ومن دون مولّدات، لم يستطعِ الناسُ ضخّ المياه. لذا، ما كنّا نشرب إلّا مقدار كوب واحد صغير في اليوم. كما كنّا نحصل على وجبة واحدة فقط طوال النهار. كانت ماما قد وجدت بعض الطحين في منزلنا المقصوف، فحملته معها وراحت تخبز، أو ما يشبه الخبز، في مقلاة على النار. نظرًا إلى نفاد الوقود، كنّا نطهو ما توفّر من طعام على موقد بسيط.

وقد أعطانا الجيران بضع بطّانيّات، لكنّنا بقينا ننام كلّ ليلة على أرضيّة ذلك المنزل الباردة الوسخة. جعلتُ نور يسند رأسه إلى معدتي، بما أنّنا لا نملك وسادات.

ثمّ مرضتُ بشدّة. ربّما لأنّ قلبي كان مريضًا فنقل عدواه إلى جسمي. جلّ ما استطعتُ فعله هو التمدّد أرضًا لأنّني كنتُ أشعر بالتعب والوهن باستمرار. لم يكن ثمّة دواءٌ ليحسّن حالتي.

كنتُ تعبة إلى درجة أنّني لم أعدْ أستطيعُ التمسّكَ بالأمل. تعبتُ من كثرة ما جاهدتُ وصارعتُ للبقاء على قيد الحياة. آنذاك، فكّرتُ في أنّه من الأفضل أن تسقط قذيفةٌ علينا فلا نعود مضطرّين إلى العيش على هذا النحو.

ما من مكان نذهب إليه

«انهضوا، انهضوا!»، راح بابا وماما يصرخان للجميع لكي يستيقظوا، وكنتُ أجهل السبب، فالشمس لم تشرق بعد كليًّا. كنّا نقيم في ذلك البيت المهجور منذ أسبوعين تقريبًا، وقد ظننته منزلَنا الجديدَ. لكنّ ماما قالت: «علينا الرحيلُ الآن يا بانة!».

كنتُ مُرتبكةً ومُتعَبَةً إلى أقصى درجة.

كان الجيران قد أتوا في منتصف الليل، وأخبرونا بأنّ جيشَ النظام يدنو منّا مجدّدًا، لذا علينا الرحيلُ على الفور. لكن تمامًا كما آنفًا، ما من مكان نذهب إليه.

أصيب الجميعُ بالهلع. كانت لبابا سيّارةٌ مركونةٌ في الخارج، سيّارة صديقه عبدالرحمن. أمر بابا النساء والأولاد بركوب السيّارة. بالكاد انحشرنا فيها، لكنّه قادها مبتعدًا بسرعة البرق. كنّا متكوِّمين كلّنا معًا، الواحد ملاصقًا الآخرَ.

«أين نذهب؟»، سألتُ. لكنَّ أحدًا لم تكن عنده إجابة. أوقف بابا السيّارة، أنزلنا منها، وقال إنّ علينا الانتظار ريثما يعود هو ليُحضر أعمامي.

لم يسبق لي أن أتيت إلى هذا الجزء من حلب. لم نكن ندري أين نذهب. تشبّثت بيدِ ماما ضاغطةً عليها بشدّة.

لم يكن لدينا ما نفعله، فتمشّينا هناك بعض الوقت. ثمّ صادفنا شخصًا نعرفه! كان أحمد حسن، الصحافيّ الذي أجرى مقابلةً معي

حول تغريداتي عبر تويتر. كان لطيفًا للغاية ويقدّم لنا المساعدة على الدوام. في بعض الأحيان، وبما أنّه لم يعد لدينا منزل، كنّا ماما وأنا نذهب مشيًا إلى مكتبه لنعيدَ شحنَ هاتفِ ماما، أو كان يسمح لنا باستعمال جهاز الواي فاي لأتمكّنَ منَ استخدامِ تويتر.

أخبَرناه بأنّه ما من مكان نلجأ إليه. فقال إنّه سيساعدنا. كان يقيم وحيدًا في شقّته القريبة من المكان، بالتالي، في وسعنا الإقامة فيها، فيما يبقى هو في بيت أحد أصدقائه.

«شكرًا، شكرًا جزيلًا!»، قالت ماما، فيما أنا عانقتُه. كنتُ ممتنّة جدًّا، إذ وجدنا مكانًا نلجأُ إليه. والآن، لم يعد أمامنا سوى انتظار عودة بابا وأعمامي لنطلعهم على الخبر السارّ.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

أوّل ما رأيته عند عودة بابا كان... الدم! كان يحاول الابتسامَ والتظاهرَ بأنّه بخير، لكنّنا جميعًا لاحظنا الأمرَ. هرعت ماما إليه ما إن ترجّل من السيّارة. حتّى السيّارة بدت مختلفة عن تلك التي أقلّتنا إلى هنا – كانت أبوابها كلّها مُبعّجة والزجاج الأماميّ مهشّمًا.

«غسّان! ما الذي جرى؟ هل أنتَ بخير؟». راحت ماما تتلمّس جسمه لتتحقّق من موقع الإصابة أو الجرح. كان عمّي وسام ينزف هو الآخر، فحذت عمّتي فاطمة حذوَ ماما – في محاولة لتحسين حاله.

أخبرَنا بابا بأنّ قذيفةً انفجرت قبالة السيّارة وهو عائد مع الرجال، فأصابَتهم شظاياها تمامًا كما حصل مع عمّي نزار. بيد أنّ بابا لم يُصَب في وجهه – بل في ذراعه فحسب. أمّا عمّي وسام فقد أصيب في ظهره.

ذهبنا إلى منزل أحمد وتفحّصنا الجروح لنتأكّد من أنّهما سيتعافيان. لم يكن لدينا ماء لغسل الندبات حتّى. وما انفكّ بابا يكرّر، «أنا بخير، أنا بخير». لكنّه لم يكن بخير. أدركتُ هذا جيّدًا، ما جعلني أرتعب. بكيتُ بكاءً شديدًا – لم أقوَ على التوقّف.

ثمّ أخرجتُ مصحفَ ماما من حقيبة يدِها. كانت قد حصلَت عليه خلال رحلة حجّها واحتفظَت به في حقيبتِها التي حملَتها على عجل قبل أن يُقصَف منزلنا، لذا، كان سالمًا.

لطالما أحببتُ قراءة آياتٍ من القرآن لبابا (ولدُماي أيضًا). فتلوتُ على بابا آيته المفضّلة، وذلك ليستريح كلانا ويطمئنّ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ما من مكان نهرب إليه

كان في بيتِنا الجديد غرفتان وسريران ليس إلّا، وقد كنّا تسعةَ عشرَ شخصًا. افترشنا الأرض ليتّسع المكان أكثر، فتتمكّن الفتيات كلهنّ من النوم على سرير واحد والفتيان على الآخر.

يومًا فيومًا، وجب علينا أن نبتدع ونبتكر خططًا لتأمين اللوازم الأساسيّة، مثل الطعام والمياه النظيفة للشرب.

لم يكن يروق لي الخروج كثيرًا. فقد كانت الشوارع مكتظّة بالناس – الآلاف والآلاف ممّن هم مثلنا، لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه.

كان بعضهم يتمدّد مفترشًا الأرض، وبعضهم الآخر ينزف دمًا، أو ثمّة مَن كان يُضرم النار ببعض الأشياء لينعم بالدفء.

في الشقّة، كنّا رزمة متراصّة من الأشخاص الكُثُر، محصورين في مساحة ضيّقة. وحتّى لو خرجنا إلى الشارع، فالمشهد هو هو: رزمة أشخاص محصورين في مساحة ضيّقة. ما كان الأمر يعجبني قطّ.

كان المبنى الذي نقيم فيه يقع عند آخر تخوم حلب. فقد دفعنا الجيش والقذائف على حدّ سواء إلى تلك البقعة. والآن ما من مكان نذهب إليه. لم يكن هناك أيّ فاصل بيننا وبين مدرّعات الجيش. والآن بات يقصفنا بوتيرة أشدّ، متقدّمًا صوبنا بمدافعه الكبيرة.

ما من مكان نهرب إليه.

وهذا كلّ شيء.

حاولنا أنا وماما أن نحثّ أصدقاءنا عبر تويتر على مدّ يد العون. ربّما كان في وسعهم ردع الطائرات عن شنّ الغارات من جديد.

وما لم يفعلوا، فسينتهي أمرنا.

أرجوكم أنقذونا الآن وفورًا.

لن تتخيّلوا كم فرحنا بذلك الخبر

تلقّت ماما خبرًا بأنّ أحدهم ينوي مساعدتنا! كان وزير خارجيّة تركيا يُجري محادثات مع النظام ومسؤولين في إيران وروسيا وغيرها من البلدان لوقف النار، ما يعني أن يوقفوا المعارك والقصف في هدنة فنتمكّن من مغادرة حلب.

عندذاك، يتوجّه أهل حلب إلى الباصات التي ستأتي لتقلّ جميع الذين كانوا تحت الحصار، فتنقلهم من حلب إلى مكان آخر، حيثُ يكونون بمأمن. في اليوم الأوّل، كانتِ الباصات تنقل الجرحى والمصابين بأمراض بالغة، ومن ثمّ في الأيّام التالية، تعود لتقلّ الآخرين الذين يودّون الرحيل.

لن تتخيّلوا كم فرحنا بذلك الخبر! فكّرتُ في أنّني قد أحزن لمغادرة حلب، لكنّني قبل كلّ شيء، أردتُ الحصول على طعام وماء ومكان للنوم – ولو لم يكن في حلب.

في اليوم التالي، ذهبنا أنا وماما إلى واحدة من معارفِها كانت تعمل في مستشفى قريب. سألتها ماما ما إذا كان في وسعها مساعدتنا في ركوب الباصات الأولى مع المرضى، بما أنّ بابا كان لا يزال يعاني من إصابته. لكنّ صديقة ماما قالت إنّها لا تستطيع فعلَ شيء بهذا الشأن. لا أودّ أن أفكّر حتّى في ما رأيتُ آنذاك خارج ذلك المستشفى: قوافل من الأشخاص الممدّدين على مساحة الأرض كلّها، يتألّمون وينزفون بسبب إصاباتهم. كان كثرٌ منهم يبكون

ويئنّون، إضافةً إلى أشخاص عدّة مغمضي العينين أملتُ بأن يكونوا نائمين، ليس إلّا. كان الجوّ عابقًا برائحة كريهة أسوإ من رائحة الإطارات المشتعلة. رائحة لن أنساها أبدًا، مهما تمنّيتُ وحاولتُ جاهدة.

عليّ أن أصل إلى تلك الباصات

لم يرَ بابا أنّ علينا ركوب الباصات في اليوم الأوّل، لقد أراد الانتظار ليتأكّد ممّا سيحدث وما إذا كان ذلك آمنًا. بيد أنّ جدّتي العابد أصرّت على الأمر؛ فقد فكّرَت في أنّها فرصتنا الأولى والوحيدة. وأنا أيضًا أردتُ الرحيل، بل أردتُ أن أكون في أيّ مكان غير الذي نحن فيه. لكنّ بابا فطن وهو قائد موثوق فيه للعائلة، ويعرف ما هو الأفضل لنا. تلك الليلة، سمعنا أنّ كثرًا استطاعوا المغادرة. كان خبرًا سارًّا وقد حمّسنا وحثّنا على الذهاب في اليوم التالي.

غادرنا في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، لنكون في الصفوف الأماميّة التي ستركب الباصات. مع ذلك، كانَ المكان يعجّ بالناس إلى درجة أنّنا لم نستطع أن نلمح مقدّم الصفّ أو حتّى الباصات. فقد نام الناس في الشوارع، ينتظرون بفارغ الصبر، لذا سَبَقَنا كثرٌ منهم. لم يكن في وسعنا سوى الانتظار نحن أيضًا. لكن، لم يكن لدينا طعام ولا ماء، وكان البرد قارسًا، ذلك النوع من الصقيع الذي يجعل فرائصنا وأوصالنا ترتجف. أشعلنا نارًا لنحظى ببعض الدفء، لكنّني لم أكن أشعر بأنفي ولا بأصابع قدميّ ويديّ التي استحالَت خدرة.

بعد ظهر ذلك اليوم، سمعنا صراخًا وفرقعات شديدة. كانوا يطلقون النار على الذين يحاولون ركوب الباصات. استبدّ الغضب والهلع بجميع الذين كانوا ينتظرون، خصوصًا جدّتي. راحت تصرخ: «كنتُ أعلم أنّه كان يجدر بنا الرحيل أمسِ! لن ننجح في مغادرة

المكان الآن!». حاولنا جميعًا تهدئتَها، لكن لا بأس لو غضبت، لأنّ هذا أمر سيّئ جدًّا. ماذا لو لم يعُد هناك باصات الآن؟

عُدنا إلى الشقّة، ففتحنا أنا وماما التويتر لنخبر الجميع بأنّ النظام خرق الهدنة. لم يكن في وسعنا فعل أيّ شيء، لكن ربّما يتمكّن أصدقاؤنا في المناطق الأخرى من الضغط على النظام ليفي بوعده بألّا يلحق الأذى بالمدنيين الذين يحاولون الهروب، ليس إلّا.

في اليوم التالي، تناهت إلينا أخبار أسوأ: لم تعد هناك باصات. كان نهارًا سيّئًا جدًّا، إذ غاب عنّا الأمل. جلّ ما كان في وسعنا فعله هو أن نصلّي لتعود الباصات.

وفي اليوم الثالث، عدنا فنهضنا قبل شروق الشمس وتوجّهنا إلى موقع الباصات ونحن نتضرّع لئلّا يطلقوا علينا النار. هذه المرّة، كان عدد الناس أقلّ، ربّما لأنّهم كانوا خائفين. وقد استطعتُ رؤية الباصات! كانت هنا! كبيرة، وكثيرة إلى درجة أنّها قد تشكّل سلسلة متتالية طويلة كالأفعى.

كان أجمل مشهد رأيته. بدأتُ أذرف الدموع، دموعَ الفرحِ. هذا ما لم يحدث لي من قبل. فقد ظننتُ أنّنا نبكي حزنًا فحسب.

أطبقتُ على يد ماما، وبدأتُ أركض باتّجاه الباصات. عليّ أن أصل إليها. بدأ نور ومحمّد يركضان أيضًا ويصيحان: «الباصات، الباصات!». كانا يصرخان ويضحكان ويبكيان في الوقت عينه.

«مهلًا، مهلًا، فلنرَ أوّلًا إن كنّا في مأمن!»، راحت ماما تحاول ردعي.

لكنّني لم أشأ أن أرتدع وأتراجع. أردتُ ركوب أحد الباصات ذلك اليوم، فلا نضطرّ إلى العودة إلى الشقّة. لم أشأ أن أعود إلى هناك بعد الآن، مطلقًا! رجوتُ ماما وبابا ليركضا، وركضنا كلّنا. انفصلنا عن بعض أفراد أسرتنا نتيجة ازدحام الجمع، لكنّنا أدركنا أنّ المكان يتّسع للجميع.

وركبنا الباص. أخيرًا.

ما كنتُ لأصدِّق

اعترَتْنا موجةٌ من الحماسةِ والفرح لفكرة الرحيل إلى مكان آمنٍ وبعيد من القذائف. لكنّ الباصاتِ لم تتحرّك. وما كنتُ لأفهمَ السبب. انتظرنا وانتظرنا، لكنّها لم تُقلع إلى أيّ مكان. مرّت ساعةٌ فاثنتان، ثمّ ساعات وساعات عدّة. غابت الشمسُ، ولم تتحرّك. لم يعُدْ في وسع أيّ أحد الصعودُ إلى الباصِ أو النزول منه. لقد علقنا حقًّا. من دون طعام ومن دون ماء. كان الجوّ باردًا إلى درجة أنّنا كنّا نرى البخارَ يتصاعدُ من أفواهنا. ولم يكن ذلك الجزء الأسوأ: بل الأسوأ كان أنّ أحدًا لم يكن يستطيع الذهاب إلى المرحاض. لذا، قضى كلّ واحد حاجتَه في سرواله – خصوصًا الأطفالَ – بالتالي، مُنِي الباصُ وركّابُه بأكره رائحة قد تخطر في مخيّلتكم.

كان الظلامُ حالكًا خلال الليلِ، ونحن جالسون في الباص – لا ضوءَ على الإطلاق، ولا شيء نفعلُه سوى الانتظار. شعرنا بأنّ قذيفةً ستسقط على رؤوسِنا أو يأتي الجنود في إثرنا. ما كان أحد لينبس بكلمة، لأنّ الحزن والخوف استوليا على الجميع. ساد صمت رهيب – يقطعه بين الحين والآخر بكاءُ الأطفال الذين يتضوّرون جوعًا ويعانون من حفّاظاتِهم المتّسخة. كنّا كالسجناء، والباصُ سجنَنا. ماذا لو اضطررنا إلى البقاءِ في الباصِ إلى الأبد؟

كان في هاتف ماما بعض الإرسال، فبعثَت برسالةٍ سريعةٍ إلى الحكومة التركيّة طلبًا للمساعدة.

في اليوم التالي، أشرقتِ الشمس علينا، والكلّ لا يزال صاحيًا. فجأةً، سمعنا هدير المحرّكات الصاخب، وبدأت الباصات تتحرّك. ظننّا أنّنا في حلم. سرنا مدّةَ عشرين دقيقةً ومن ثمّ رأينا من خلال النوافذ حشدًا كبيرًا ينتظرنا. قالت ماما هؤلاء مَن سيقدّمون لنا المساعدة. نظرتُ إلى انعكاس صورتي في النافذة فلمحتُ على وجهي ابتسامة عريضة، بل كانَتِ الأعرضَ في حياتي. حتّى أنّها آلمَتْ وجنتيّ. ما كنتُ لأصدّق – أصبحْنا في أمانٍ.

نحن في مأمن الآن

كانت ساقاي ترتجفان عند ترجّلي من الباصِ، كأنّني نسيتُ كيفيّة الوقوف على قدميّ بعد طولِ جلوس. استقبلتنا مجموعةٌ من الأشخاصِ الطيّبين واللطفاء بطعام وفير وماء كثير، وزّعته علينا وعلى بقيّةِ ركّاب الباصات. بعدَ ذلك، عرفنا أنّ سيّدة في باص آخر قد أنجبت طفلًا، فحضر أطبّاء ليعتنوا بها.

قال محمّد: «ماما! نحن في الجنّة!».

وهذا فعلًا ما شعرنا به كلّنا. لم نتناولْ طعامًا منذ وقتٍ طويلٍ، إلى حدّ أنّنا لم نعرفْ أيّ صنفٍ نلتهمُ أوّلًا. لقد أردنا تناولَ كلّ شيء في آنٍ واحد – الموزَ والتفّاحَ والخبزَ! والمياه طبعًا! كم كان مذاق الماء لذيذًا! شربتُ ثلاث قنانٍ على التوالي. لكنّنا، تقيّأنا جميعًا فائضَ الطعام والماء. لذا، أخذنا استراحة ثمّ استأنفنا الأكل بعدها.

بعدما أكلتُ وغسلتُ، طلبَ أحد الرجال هناك منّا أنا وماما التحدّث عبر التلفزيون، لنروي للجميع قصّة حلب، ونخبرهم بشعورنا الآن وقد أصبحْنا في أمان.

بعد ذلك، دعا أحد الأطبّاء عائلتي إلى منزله القريب لنغتسل ونستحمّ. عندَ وصولِنا، أتى رجال منَ الحكومةِ التركيّة ليصطحبونا، وذلك حفاظًا على سلامتنا. فالحكومةُ السوريّةُ لم يُعجبْها أن أتواصلَ معَ الناس عبر تويتر وأطالبَ بالسلام، لذا لم يكن بقاؤنا حيثُ نحن – كنّا لا نزالُ في الريفِ السوريّ – أمرًا محبّذًا.

بدايةً، وجب علينا ركوبُ سيّارةٍ إلى مدينة أخرى قريبة من الحدود، ومنها توجّهنا إلى تركيا على متنِ طائرة. لم يسبقْ لي أن حلّقْتُ في السماء. عندما صارتِ الطائرة في الجوّ، أحسستُ بشعورٍ غريب في أمعائي، كان سببه الخوف من الطيران من جهة، والقلق والحزن على مغادرة سوريا من الجهة الأخرى. نظرتُ إلى أسفل من الطائرة، لأتحقّق ما إذا كان في وسعي رؤيةُ حلب وألوّح لها مودّعةً. لكنّ الدنيا كانت ظلامًا وجلّ ما رأيته هو بعض الأضواء. يبدو العالم جميلًا جدًّا من الأعلى – تلك المباني الصغيرة المُضاءة كلّها، كبيوت الدُمى. لم أكن أستطيع التخيّل كيف يمكن للجيش إلقاء القذائف عليها.

صمتنا جميعًا فيما رحنا ننظرُ من النوافذ. أسندَ بابا ظهره، مستريحًا في مقعده وأغمض عينيه. أمّا نور ومحمّد فكانا يغطّان في نوم عميق، فيما كانت ماما جالسة في الجهة المقابلة لي من الممرّ. ثمّ اقتربَت منّي، وهَمَست: «نحن في مأمن الآنَ يا بانة. سنكونُ بخير».

وكانت كلماتها آخر ما تذكّرتُه قبل أن يغلبَني النعاسُ أنا أيضًا. حلمتُ في أنّني أسبحُ مع بابا ونتراشق بالماء، وأنا أضحك وأضحكُ؛ كنتُ سعيدة!

آنذاك، كانَ المستقبلُ شبهَ مجهولٍ يا بانة. لكنّنا أدركنا أنّنا نجونا حقًّا، وقد تجاوزنا أسوأ أيّامِ حياتنا. أن نعرف ذلك قد أراحنا نوعًا ما، وأن ندرك أنّنا لن نضطرّ أبدًا بعد الآن إلى المعاناةِ من الهلعِ والفوضى والحرمان التي عشناها في سوريا، خصوصًا خلال الأسابيع والأشهر الأخيرة، أو في الأقلّ ما عشناه خارجَ كوابيسِنا.

العذاباتُ والموتُ والخوفُ والجوعُ والعطشُ، يومًا بعد يوم، من دونِ بصيص أمل للخروج من هذا النفق الحالك، جميعها أرهقَت كلّ واحد منّا. كنتُ أرى جيّدًا تأثير سوءِ التغذية والتوتُّر والقلق عليكم يا صغاري: الهالات السود حول عيونكم، وشعوركم التي أصبحت خفيفةً، وصمتكم المتوجّس. خوفي أنا حين نفد منّي الدواء، فيما كنتِ تتعرّضين لنوبة ربو وأعياكِ المرض. لقد عشنا في جحيم على الأرض لا تتصوّره أو تفهمه إلّا قلّة قليلة من الناس.

كم يصعب عليّ قول ذلك! لكن مع كلّ إرادتي ورغبتي في أن أكون دومًا حاضرة إلى جانبكم، قويّة منيعة، وألّا أظهِر خوفي لحظة، وأن أجعل حياتنا سعيدة قدرَ المستطاع في ظلّ تلك الظروفِ القاسية العنيفة، فقد أتت لحظة ظننتُ أنّني لن أستطيعَ الاستمرارَ. دُمّر منزلُنا، وهذا ما دمّرنا نحن، وخلال أسابيع طوال بتنا لاجئين في مدينتنا، في ديارنا. لقد رأيتكم يا أولادي تتعذّبون وتشهَدون مشاهد فظيعة مروّعةً لا يجدر بأيّ ولد أن يراها – جثث أطفال تنتن وتتعفّن في الشوارع – مع العلم أنّني لم أكن أستطيع شيئًا لحمايتكم أو تحسين الأحوال والتخفيف عنكم. ومن ثمّ أتى الجيران ليخبرونا بأنّ جيشَ النظام يتقدّم نحوَنا. آنذاك، دُفعنا ودُفعنا بعيدًا، إلى أبعد زاوية من المدينة، كفئران في مَتاهة. عندذاك، لم يعد لدينا مكانٌ نذهب إليه بكلّ ما للكلمة من معنى. فقد حوصرنا من الخلف ومن الأمام ومن الأجواء في الأعلى، من الجيشِ الذي ما انفكّ يتقدّم. جلسنا أبوك وأنا متلاصقين في صقيع الخارج، وسط ظلمة الليل الحالكة. وكان النور الوحيد يأتي من نيران مشتعلة في البعيد، والهواء يحمل معه رائحةَ النيلون والخشب المحترِقين، وقد علقَت دائمًا في الجوّ روائح الوقود والزيوت المشتعلة الكريهة والجثث المتحلّلة المقزّزة. آنذاك، سمحنا لأسوإ الأفكار والمخاوف بالاستبداد بنا، والأغرب أنّ ذلك أراحنا بعض الشيء. فبعد كلّ ما عانيناه، وصلنا إلى هذا. «إنّها النهايةُ». أظنّني قلتُها بصوت عالٍ، وعوضًا عن الخوف شعرتُ بما يشبه الارتياح أو الاطمئنان. فلطالما أرهَقتني

جهودي المُستبسِلَة للاستمرار! بعدما كابدتُ وصارعتُ للعيش طوال تلك المدّة، اعتبرتُ أنّه من الأنفع أن أستسلمَ وأذعِنَ للأمر الواقع، وأدَع التيّار يجرفني إلى الهوّة، وأرحل عن هذا العالَم إلى العالمِ الآخر. ربّما الموت هو الوسيلة الوحيدة لأنعمَ بالسلام!

بيد أنّ إرادة العيش كانت قويّةً، كنفَسِكِ أو نبضاتِ قلبكِ، هي تحملُكِ حتّى لو لم تدركي ذلك. إنّها شعلةٌ تومضُ في عمق أعماقِكِ. لهذا، يستطيع كثرٌ منّا الاستمرارَ، فيما يكون من الأسهل أن يموتوا أو يستسلموا. لدى المرءِ طاقةٌ مهولةٌ لتحمُّل العذاب؛ ما يمكننا احتمالُه من ألم مُذهِل حقًّا. نقبل بما يأتينا ونعاني ونعاني... ونجد دومًا وسيلةً للمضيّ قُدُمًا!

هكذا إذًا، في أحلكِ ساعاتي وأحوالي، تمكّنتُ من جمع ما يكفيني من الأسباب للعيش، أهمُّها: أولادي، وقدرتي على مدّ يد العون إلى غيري. فأنتِ وأنا قد أصبحنا صوتَ شعبِ سوريا ولسانَ حالِه، ولم يغُد في وسعنا أن نخذلَه.

لأمر غريبٌ حقًّا! تويتر يا بانة وبشكل من الأشكال، قد أنقَذَنا. فعليًّا ومجازيًّا. لقد منحنا وسيلةً للتواصلِ مع الأشخاص الذين أرادوا مساعدتَنا، والذين استطاعوا أن يبقوكم في مأمن وسمحوا لنا بالهروب من حلب. إضافةً إلى ذلك، مجرّد التواصل مع الآخرين ومشاركتهم قصّتنا ومعاناتنا، حسّن حالنا. بل مدّنا بالقوّة والدافعِ، ولا يزال. كان عالَمنا في الملجإ صغيرًا منمنمًا، لكن وبفضل هاتف خليويّ بسيطٍ، بات واسعًا.

لم يكن لأولاد سوريا وسيلةٌ للتعبير، فكنتِ أنتِ مَن تكلّم باسمهم. لطالما استنكرتِ الظلم والاستبداد، منذ نعومة أظافرِكِ. كنتِ تقولين: «هذا غير مُنصِف أو هذا غير مُحِقّ» كلّما رأيتِ شيئًا لا يتماشى مع أخلاقيّاتكِ ومبادئكِ الشهمة. خلال الحرب، كنتِ مُقتنِعة بأنّ الناس إذا فهموا ما يحدث، سيساعدوننا لا محالة. وقد فعلوا. نحن في أمانٍ الآنَ، لكنّ، ما زال أمامَنا الكثير للإنجاز، وذلك من أجل وضع حدّ نهائيّ للحرب والقتال.

لن نسكُت إلى أن يتمّ لنا ذلك. حتّى لو حاولوا تشويه سمعتكِ ومسعاكِ، أو تهديدكِ أو ترغيبكِ، أو الأسوأ، إسكاتكِ. هل من فعلة أحقر منها تهديد حياة فتاة في السابعة؟! لقد جمد دمي في شراييني يوم تلقّيتُ أوّل مرّة رسائلَ تُهدّد بقتلكِ، من متوحّشي تويتر والنظام. وكذلك الأمر حين سمعنا أنّ قوى النظام قد قصفت منزلنا عن قصد، وأنّها تستهدفنا بشكل خاصّ. شعرتُ بمعدتي تنقلب.

فقد قلقتُ على حياتكِ خلال الأسابيع القليلة الأخيرة على وجه التحديد. شعرتُ بأنّنا طرائد، فيما قلقت بقيّةُ أفراد العائلة من أن تكوني في خطر، لذا بتنا جميعًا في دائرة الخطر. أخرجتُ الرقاقة الذكيّة من هاتفي، لئلّا تتمكّن قوى النظام من ملاحقتنا، كما حرصتُ على أن تعتمري قبّعتكِ كلّما خرجنا من المنزل. فأنا لم أشأ أن يتعرّف إليكِ أيّ من العسكريّين. وقد ساعدني

كثيرًا أن ترتدي ملابس الصبيان تلك وتُخفي شعركِ الطويل. أذكر كم بكيتِ عندما حصلتِ على تلك الملابس! لكنّها في النهاية كانت بمثابة نعمة مُنقِذَة.

قد أفعل ولسوف أفعل أيّ شيء للحفاظِ على سلامتِكِ يا بانة، لكنّني لن أُسكتَكِ، لا لن أفعل يومًا. فهذا تمامًا ما يريدون. وهذا ما يحاولون فعله بدُعاة السلام وصانعيه كلّهم، وذلك منذ بداية الأزمنة: السيّد المسيح ومارتن لوثر كينغ الابن وغاندي.

لكنّ ذلك لا يفعل سوى تأكيد قوّة تأثير رسالتِكِ. تستطيعين تغيير العالم يا بانة، وهم يدركون ذلك جيّدًا. لذا، لن نُذعن للمحقّرين والمهدّدين والجبناء الذي يودّون إلحاقَ الأذى بطفلة لا تريد سوى السلام.

بل علينا الاستمرار في التكلّم باسم السوريّين الأبرياء وغيرهم من ضحايا الحروب. فنحن نفهم تمامًا خطورة الرهان ومدى بشاعة الحرب، فإذا لم نفعل نحن، فمَن سيفعلُ؟ لقد بقينا أحياء، إذًا واجبنا ودَيننا حيال تلك المعجزة أن نساعد غيرنا ليعيش.

ما الذي يخبّئه المستقبل لنا؟ لا ندري. كلّ ما عرفتموه أنتِ وشقيقاكِ هو حياة من الحرب والعنف، وسيستغرق اندمال تلك الندبات وقتًا طويلًا، لكنّ ضحكاتِكم قد ازدادت منذ الآن، وبثّ ألاحظ رشاقةً وخفّةً لديكِ ولدى محمّد ونور لم أشهدهما من ذي قبل. كما أنّ نور قد نطق بكلماته الأولى بعد أسبوع من وصولنا إلى تركيا، والآن أصبح كمذياع صغير متجوّل. أنا وأبوك نتمازح بأنّنا اشتقنا إلى زمن سكوته. أن نستطيع المزاح مجدّدًا، يا لها من نعمة!

أحلامي المستقبليّة متواضعة جدًا يا بانة. أريد أن نبني لعائلتنا بيتًا جديدًا، نملأه بالأغراض والأشياء التي تُحِبّ. أريد لكِ ولشقيقيكِ تعليمًا جيّدًا. أريد أن أتمكّن من إكمال دراستي الجامعيّة، ويودّ أبوكِ أن يجد عملًا ليعيلَنا، ربّما يفتح متجرًا صغيرًا. نريد ما يريده الجميع، وما أراده الجميع منذ بداية الأزمنة: حياة بسيطة وسعيدة.

في النجاة والاستمرار، ثمّة أمر يُنير ويُلهِم، وإنّما يتأتّى من خسارة كلّ شيء – بلادنا ومنزلنا ومقتنياتنا. حين يتجرّد المرء من كلّ شيء، يفهم من أيّ طينة جُبِلَ وما هو الضروريّ الأساسيّ ليس إلّا.

أنتِ الأساسيّ والضروريّ، أنتِ وبابا ونور ومحمّد وبقيّة أسرتنا. كلّ ما نحتاج إليه هو بعضنا بعضًا.

سوف نظلّ نشتاق إلى سوريا. ما انفكّيتِ تسألين كلّ يوم، متى تُمكننا العودة. آملُ بأن يأتي هذا اليوم، فنرى بلادًا قد أعيد بناؤها وشعبًا قد عاد إلى الحياة. بيد أنّ ذلك قد يستغرق وقتًا طويلًا، طويلًا جدًا. ربّما تكونين قد أنجبتِ لي أحفادًا حينئذٍ. سأروي لهم القصص عن الحرب وعن مدى شجاعة والدتهم وجرأتها، وكيف أبَتِ الاستسلام وكيف جعلَت من مساعدتِها الغير واجبَها الوحيد الأوحد. وكيف نشرَت رسالةَ أملٍ وسلام.

سوف أخبرهم بأنّ والدتهم بطلة!

وأنتِ حقًّا كذلك يا بانة، بطلة. وأنا فخورة جدًا بأن أكون والدتكِ.

أحبّكِ يا بُن بُن، أكثر ممّا قد تتخيّلين يومًا.

مع خالص حُبّي،

ماما.

هذه هي أمنيتي

هل تعلمون أنّ الحرب في سوريا أودت بحياة حوالى خمسمئة ألفِ شخصٍ، ولا يزالُ ناس كثرٌ يسقطون ضحايا ويموتون كلّ يوم؟ والواقع أنّ عائلات كثيرة على غرار عائلتي لم يبقَ لها أيّ خيار سوى مهاجرة بلدها الحبيب إلى بلدان أخرى تعتبرنا مجرّد لاجئين. حتّى أنّ هناك أناسًا يقولون أنّهم لا يريدون لاجئين في بلادهم. بل ويريدونهم أن يعودوا إلى مواطنهم، حتّى لو لم يعد لهم بيت يأوون إليه هناك، أو يريدونهم أن يرحلوا إلى أيّ مكان آخر، حتّى لو كان أهالي ذلك المكان الآخر لا يرحّبون بهم كذلك. لكن، ما من مكان آخر ليذهبوا إليه. ما لم يكن لديكم بلاد فيما أهلكم أو أولادكم على وشك أن يُقتَلوا، فما الذي قد تفعلونه؟

إن أنتم زرتُم أحدَ بيوتنا في سوريا، لرحّبنا بكم كما لو كنتم من العائلة ولتشاركنا معكم كلّ ما لدينا، مثل الحلوى أو الشاي. وهذا ما أتمنّاه، أن يُعامَل بالمثل كلّ غريب يأتي إلى بلادِكم، أن تشاركوه وتساعدوه وتحاولوا فهم معاناته المريرة.

لقد عامَل أهالي تركيا عائلتي بكامل اللطف وأنا ممتنّة لذلك. نحن ممّن حالفهم الحظّ، لأنّ هناك لاجئين من سوريا ومن بلدان أخرى، مضطرّون إلى العيش في مخيّمات. منها مخيّمات مكتظّة وليس فيها ما يكفي من طعام أو دواء، فيما يمضي لاجئوها أيّامهم في ضجر مميت، فلا يمكنهم حتّى العمل أو الذهاب إلى المدارس.

ذات مرّة، زرتُ مخيّم الريحانيّة في تركيا، حيثُ كان المكانُ يُؤهّل لتأمينِ عيش لائق للّاجئين، لكنّ ذلك لا يُشبه الإقامة في منازلكم الخاصّة. زرتُ أيضًا دار أيتام في غازي عينتاب في تركيا، حيثُ يعيش أكثرَ من خمسة وعشرين ولدًا قُتِل أهلهم خلال الحرب. كم أنا محظوظة، إذ بقي والداي على قيد الحياة! وهذا ما لم يتسنّ لأطفال كثر. بل وما زال الأطفال يموتون ويتأذّون ويتألّمون كلّ يوم، مثل عبدالباسط طعّان، ذلك الصبيّ الصغير الذي زرتُه في المستشفى، وهو في مثل سنّي تمامًا، لكنّه فقد ساقَيه نتيجة سقوط قذيفة قربه.

ليس من العدل أن يُرغَم الناس على العيش في مخيّمات، أو في ظلّ الخوف طوال الوقت، أو أن يروا أصدقاءهم وعائلاتهم يموتون، أو يعيشوا من دون مياه شفَة نظيفة أو طعام أو منازل.

بل إذا أدركتُم أنّ ثمّة أمرًا غير صحيح، فعليكم إصلاحُه. علينا جميعًا مساعدة بعضنا بعضًا، بصرف النظر عن البلد الذي نعيش فيه.

أنا أساعد الآخرين، إذ ألفت الانتباه إلى الحرب وكم هي سيّئة وبشعة، خصوصًا على الأطفال!

وفي وسعكم أنتم المساعدة أيضًا، بالتبرُّع بالمال للناسِ الذين يساعدونَ الشعب السوريّ، مثل المنظّمات التي تعمل جاهدةً لتساعد في حلّ أزمة اللاجئين.

أو في وسعكم التحدّث إلى أناس آخرين في بلدانكم، ربّما كتابة الرسائل إلى رؤساء جمهوريّاتكم، أو رؤساء حكوماتكم والسياسيين، طلبًا للمساعدة.

كذلك، في وسعكم معاملة العائلات اللاجئة بلطف وتزويدها معلوماتٍ وإرشاداتٍ حول بلدها الجديد إذا احتاجَت إلى ذلك.

تذكّروا، هؤلاء يعانون الحنينَ إلى الوطن.

يمكنكم أيضًا أن تصلّوا أو تتمنّوا، مثلما تفعلون عندما تطفئون شموع أعياد ميلادكم أو ترمون قطع نقود في بركةِ ماء.

بلغتُ الثامنة، فيما كنتُ أعمل على إنهاء كتابي، لذا تسنَّت لي الفرصة لأتمنّى أمنية وأنا أطفئ شموع عيد مولدي.

كان من الصعب جدًّا أن أختار أمنية واحدة، ففي قلبي كثير منها، على سبيل المثل:

أودّ ألّا أسمع وألّا أرى قذيفة مجدّدًا!

أودّ أن أعود وأعيش في حلب ذات يوم!

أودّ طفلة شقيقة!

أودّ أن أذهب إلى المدرسة ثمّ الجامعة!

لكن قبل كلّ شيء، أودّ أن يتوقّف الناس عن التقاتل بالقنابل والمدافع والأسلحة الناريّة، في سوريا كما في سائر أنحاء العالم!

أودّ بل أرجو أن يعمّ السلامُ في العالم!

أنا اليوم في الثامنة من عمري، وهذه هي أمنيتي.

أودّ أن أشكر كلّ مَن ساعدني وساهم في نشر هذا الكتاب. لما كان ذلك ممكنًا لولا عائلتي وأصدقاء كثرٌ!
أمّا كريستين برايد، ناشرتي، فقد دعمَتني وشجَّعتني كثيرًا. وأودّ أن أشكرَ وكيلتي زوي كينغ التي واكبتني خطوة تلو أخرى، وصولًا إلى موعد نشر الكتاب. وفي الختام، أودّ أن أشكر ج. ك. رولينغ التي كانت بالنسبة إليّ مصدر إلهام وطاقة.
أشكركم جميعًا.
بانة